12
روايات مصرية للجيب
فانتازيا
بين عالمين
Looloo
www.dvd4arab.com

مقــدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

* * *

١ - من أنا ؟

تتسلى (عبير) بقراءة العبارات التى تدلّ على البلدان ، التى تراها من نافذة قطار (فانتازيا) الذى يمشى بتؤدة .

تسأل (المرشد) وهى تسترخى فى مقعدها :

- « فكرة جيدة .. ولكنى لم أرها من قبل .. »

- « إنها إحدى تحديات إدارة (فانتازيا) .. والغرض هو المزيد من راحتك يا (أليس) .. »

- « قلت لك لا تدعنى (أليس) .. »

فيبتسم ويواصل الضغط على قلمه .. تك تتك تك !

وتروح هى تواصل تأمل اللافتات ..

أرض الخيال العلمى .. أرض العباقرة .. عالم القراصنة .. عالم (ديزنى) .. عالم (هانز أندرش) .. أرض رعاة البقر .. دراما النفس .. أرض البحار .. ثم ....

- « دراما النفس ؟ لم أر هذا الجزء من قبل .. »

قال بلا مبالاة بغيضة :

ـ « إنه المكان الذى يتحدث عن الدراما النفسية .. ظننت هذا واضحًا .. »

ـ « نعم .. كمن يفسر الماء بالماء .. هذا واضح بالفعل .. »

ثم انحنت إلى الأمام لترى أكبر مساحة ممكنة .. وتساءلت :

ـ « هل لى أن أنزل فى هذا المكان ؟ »

ـ « إن أحلامك أوامر .. ولكنى لا أرى ما هو معرفى .... »

لكنها كانت تعرف ...

فها هى ذى ترى شارعًا مألوفًا .. وترى زقاقًا صغيرًا ضيقًا يقف على أوله بعض الشباب العاطل يتبادلون المزاح البذىء والصفعات ، ومن آن لآن يبصق أحدهم على التراب على سبيل الدعابة .. كل هذا يبدو مألوفًا .. مألوفًا أكثر من اللازم ..

فى الحلم السابق قالت له إنها راغبة فى زيارة عالمها فى (فانتازيا) .. لقد قال لها (المرشد) مراراً إنها حلم .. كل حياتها السابقة حلم .. والحقيقة

الوحيدة التى تحياها هى أن تكون هنا .. فى (فانتازيا) .. تستقل القطار وتنظر من نافذته ثم تنتقى مغامرة ما ..

أى أنها ـ عمليًا ـ تحيا فى الفراغ بلا نقطة ارتكاز .. قدماها لا تلمسان أرضًا بل هما معلقتان للأبد ..

كأنه عقاب إغريقى مرير كالذى رأته فى مملكة الموتى .

الآن هى راغبة فى زيارة عالمها القديم الذى تحول ـ بمعجزة ما ـ إلى محطة أخرى من محطات الأحلام فى (فانتازيا) ..

إنها لا تصدق أن هذا هو مصيرها ..

صحيح أنها لم تعد قط إلى عالم الواقع ، منذ زارت مملكة الموتى ، لكنها لاتصدق أن الأمور يمكن أن تكون بهذا السوء ..

إن الخيال جميل .. لكن بشرط أن يكون هناك واقع ..

إن الفرار جميل .. لكن لا بد أن يكون من زنزانة لا من فرار آخر ..

إن الموسيقا جميلة .. لكن لا بد من أن نملك معها الحق فى الكلام والقدرة عليه ..

لهذا لم تتردد كثيراً ..

قالت (للمرشد) :

ـ « أرغب فى النزول ها هنا .. »

ـ « فى أرض (دراما النفس) .. ليكن .. »

وجذب الحبل الذى يوقف القطار ..

★ ★ ★

قال لها وهو يساعدها على الترجل من القطار :

ـ « ها هو ذا دورك الجديد : (عبير عبد الرحمن) .. فتاة سمراء لا يميزها شىء .. حاصلة على مؤهل متوسط وفقيرة جدًا .. ثم وجد فيها خبير الكمبيوتر الوسيم (شريف إبراهيم) ضالته .. ويبدو أنها حركت ذكرى عاطفية ما فى روحه فتزوجها .. »

قالت بلهجة دهشة تمثيلية :

ـ « أحقًا ؟ يا للغرابة ! كل ما تقوله جديد علىّ ! »

عاد يداعب قلمه محدثًا الصوت البغيض .. تك تتك تك !

ثم واصل الكلام :

ـ « لقد اخترع (شريف) جهازًا غريبًا لصنع الأحلام اسمه (دى ـ جى ـ ٢) .. وعن طريقه عاشت

(عبير) فى عالم معقد متشعب من الأحلام التى خرجت كلها من صفحات الأدب ، الذى قرأت منه الكثير .. وقد أورثها هذا الجهاز نوعًا شاذًا من الإدمان .. إدمان الحلم .. »

هنا صاحت (عبير) وقد نفد صبرها :

ـ « أنت تحدثنى عن أشياء أعرفها عن ظهر قلب .. لأنها أنا ! »

مطّ شفته السفلى فى لا مبالاة .. وقال :

ـ بل لأنك جربتها من قبل فى أحلامك .. »

ـ « اسمعنى أيها المعتوه ..... »

طقطق بلسانه محذرًا .. ورفع أصبعه السبابة :

ـ « دون طول لسان من فضلك .. »

أردفت بنفس العصبية :

ـ « أنا قد عشت عشرة أحلام(*) .. ولو كان كلامك صحيحًا لكنت قد عشت أحد عشر حلمًا .. ثم .. أين كنت أنا قبل الحلم الأول ؟ »

ـ « هذا سؤال شبيه بالسؤال عما كان فى الكون قبل خلقه .. »

(*) المغامرة السابقة كانت من جزأين ..

ثم أعاد القلم إلى جيبه ، وقال :

ـ « على كل حال .. هذا الجدل لن يقود لشيء .. تعالى معى .. »

★ ★ ★

ووجدت (عبير) نفسها تدخل غرفة شبه مظلمة .. متى دخلتها وكيف ؟

لقد كانت فى الشارع منذ ثوان .. لا يهم ...

وعلى منضدة أنيقة أمامها كانت شاشة الكمبيوتر تتألق ، وفى الطرف السفلى من الشاشة وجدت علامة المحثّ المألوفة تعلن لها :

C:\> DG -2 terminated

كل هذا مألوف ومعهود .. لقد انتهى البرنامج من فوره ..

وهو ذا (المرشد) يجذب المقعد للوراء ، ثم يشير لها بأن تجلس .. فانصاعت دون تردّد ...

وفى الضوء الخافت المتألق من الشاشة ، رأته يتناول أقطاب جهاز رسم المخ فيثبتها بعناية حول رأسها ..

سألته :

رأته يتناول أقطاب جهاز رسم المخ فيثبتها بعناية حول رأسها ..

ـ « هل ترسلنى إلى حلم جديد ؟ »
ـ « نعم .. لكنه يبدأ بانتهاء حلم سابق ! »
لم تفهم .. من منا يفهم ؟
قال لها وهو يتراجع خطوتين إلى الوراء :
ـ « والآن وداعًا .. ألقاك بعد مغامرة لا بأس بها .. »
سألته وهى ترمق الشاشة :
ـ « لكننى قد عدت تمامًا .. لن ألقاك إلا إذا قمت بتشغيل البرنامج من جديد .. أليس كذلك ؟ »
لكنه كان قد اختفى كالعادة ..
وظلت وحدها فى الظلام ..

★ ★ ★

٢ـ حياة عادية .. ولكن ..

فى اللحظة التالية انفتح باب الحجرة ، وشمت رائحة (لوسيون) الحلاقة المميز لـ (شريف) ، وكان يسبقه كالعادة بثلاث ثوان ..
وسمعت صوته الحبيب يهتف :
ـ « (عبير) ! ماذا تفعلين ؟ »
ثم رأى الأقطاب على رأسها ففهم .. هرع نحوها فأطفأ الجهاز ، ثم أضاء نور الغرفة ، وعاد ينزع عنها الأقطاب وهو يردد :
ـ « مجنونة ! أنت مجنونة ! »
وانهضها وهو يتحسس وجهها فى قلق :
ـ « هل أنت بخير ؟ كيف جرؤت على تشغيل الجهاز بمفردك ؟ كل هذا لأننى لم اسمح لك بتجربة أخرى ؟ يا للسماء !
هل نسيت ما حدث لك أول مرة ؟ »
كانت هى ترمقه ذاهلة ..

الوجه وجهه .. مسام الوجه مسامه .. اللحية الحليقة التى ظلت بها جذور الشعر خضراء عنيدة تتحدى الموسى .. حتى الشعرة التى تخرج من طاقة الأنف اليسرى ..

إنه هو .. حتمًا هو .. (شريف) زوجها ..

إنها لا تحلم ..

لقد عادت .. بالحقيقة عادت ..

★ ★ ★

وبعد دقائق من الحوار ، عرفت ما كانت تتوقعه ..

لقد دخلا الفراش لينامـا ، وحين صحا (شريف) فجأة ليلاً لم يجدها بجواره .. وهرع إلى غرفة (الكمبيوتر) ليجدها تصحو بعد حلم جديد ..

ـ « بل أربعة أحلام ! »

ـ « مرة واحدة ؟ »

قالها فى دهشة .. فمن المؤكد أن تجربتها لم تستغرق أكثر من ساعتين .. لكن الجواب حاضر فى كل مرة حتى غدا مملاً : لا وجود للزمن فى العقل الباطن .. قالها (فرويد) وصارت مسلَّمة تتحقق فى كل مرة ..

ساعتان لا أكثر ! اجتازت خلالهما عالم الأساطير الإغريقية ، ثم فرَّت من خنَّاقى الهند المعاتيه ، وقاتلت مع أبطال (شكسبير) ، ووقعت فى هوى (طرزان) .. يا للغرابة !

وكان أول ما فعلته هو أن تثاءبت ، ثم أعلنت أنها بحاجة إلى النوم .. ونومها ـ منذ عرفت (فانتازيا) ـ كان خاليًا من الأحلام تقريبًا .. كأنما تنهى رصيدها كله مع (دى ـ جى ـ ٢) ..

★ ★ ★

الصباح .. طقوس إعداد الافطار ..

(شريف) يجلس أمام المائدة يطالع الجريدة ، وهو يرتدى قميصًا أنيقًا ، وربطة عنق أكثر أناقة ، ليبدوَ ككل مهندسى (الكمبيوتر) .. و(عبير) لا تفهم أبدًا سرَّ الاتفاقِ الخفى الذى جعل هذا هو الزِّى الرسمى لمحاسبى البنوك ومهندسى (الكمبيوتر) .. يحسو جرعة من عصير البرتقال .. يقلب البيض المقلى بشوكته .. يقضم قطعة من الخبز المقدد .. ثم ينظر لساعته معلنًا أنه تأخَّر ..

يلثمها على جبينها ويحمل حقيبته ، ويهرع مغادرًا

الدار .. وبعد ثوان تسمع هدير محرك سيارته ، إذ تصحو من نومها الطويل .. وبعد دقائق من (التسخين) تسمع صوت تحرك السيارة ..

يوم كأى يوم من أيام حياتها الجديدة .. تلعب دور الزوجة فى فيلم أجنبى ، من التي كانت تراها على شاشة التلفزيون فى الماضى ..

هو يوم كأى يوم آخر ...

لكنها تشعر فى قرارة نفسها أن الأمر يختلف .. ثمة اختلاف طفيف ..

لكن ما هو ؟

★ ★ ★

دخلت إلى غرفة الكمبيوتر ..

كان كل شىء كما هو أمس .. الأقطاب المتناثرة على المنضدة .. وجهاز الكمبيوتر الغافى ..

جلست على المقعد ثم مدت يدًا ملولاً إلى زرّ التشغيل .. وعلى الفور بدأ هدير القرص الصلب ، والرسائل المتوالية على الشاشة التى لا تفهم منها شيئاً ..

كان الكمبيوتر يعطيها إحساسًا دائمًا بوجود فرد

ثالث فى حياتها مع (شريف) .. فرد له حياة خاصة به .. ولم تكن تعرف شيئًا عن أجهزة الحاسب الآلى العملاقة التى لا تُغلق أبدًا ، والتى لا تنفك تتعلم من أخطائها .. وما كانت تتصور وجودها ..

بالواقع كان هذا الجهاز هو أول وآخر جهاز كمبيوتر تراه فى دنيا الواقع .. وبالنسبة لها كان مفزعًا بما يكفى ..

وعلى الشاشة ظهرت علامة المحثّ ..

c:\>

مدت أصبعًا خائفًا إلى الحروف .. وكتبت :

c:\> DG - 2

وضغطت زرّ الإدخال ..

لم تكن تريد اجتياز حلم جديد الآن .. فقط كانت تريد الاستمتاع بمشاهدة الأرقام تجرى على الشاشة ، ولهذا لم تضع الأقطاب على رأسها ..

لكن لم تر أية أرقام .. فقط رأت عبارة تقول :

c:\> File not found

لم تكن تجيد الإنجليزية .. لكنها تعرف شكل الحروف التى تعنى شيئًا ما ..

وكانت تعرف أن رسم هذه العبارة معناه أن شيئًا ليس على ما يُرام .. البرنامج الذى تريده غير موجود ..

غريب هذا ! الملف كان يعمل حتى صباح اليوم .. هل تلاشى تلقائيًا دون إنذار ؟ إنها تعرف أن شيئًا كهذا لا يحدث .. عاودت المحاولة دون جدوى ، من ثم أغلقت الجهاز ونهضت ..

من المؤكد أن (شريف) قد عبث بشىء ما فى أثناء نومها .. أزال البرنامج أو غيّر اسمه ليمنعها من إعادة المحاولة فى غيابه ..

لقد أخذ مفتاح الكرار معه ليتأكد من أنها لن تعبث ..

تبًا ! لكن من يلومه على ذلك ؟

هى كذلك لن تسأله .. ستتظاهر بالبراءة وبأنها لم تدخل حجرة الكمبيوتر قط ..

إلى أن يجىء اليوم الذى تشعر فيه برغبة نهمة فى الحلم .. عندها لن تكون هناك مشكلة .. ستعرف كيف تقنعه بإعادة البرنامج ..

وكانت تفهم (شريف) .. إنه يمقت (دى - جى - ٢) لكنه فخور به .. ولن يجرؤ أبدًا على التخلص منه

نهائيًا .. مثله مثل الأب الذى - مهما بلغ ضيقه من ابنه الشقى - لا يجرؤ على إلقائه من الشرفة ، برغم أن هذا حلّ فعّال لمشاكله ..

يومًا ما ستحتاج إلى عالم الأحلام من جديد .. وعندها ....

★ ★ ★

سيعود (شريف) عصرًا كعادته ...

قررت أن تنزل لتزور دارها القديمة .. إن هى إلا بضع ساعات ثم تعود قبل ميعاد الغداء ، ولحسن الحظ أن (شريف) لا يحبّ التعقيدات فى مطعمه .. ستسلق له بعض (المكرونة) ، وبعض قطع من الدجاج تحمرها كيفما اتفق .. هذا لن يستغرق وقتًا ...

وبعد ساعة كانت تدخل الحارة الضيقة ، تجتاز بركة الماء الآسن الأبدية .. وتزجر أحد الأطفال الذين يتشاجرون على الباب ، لأنه يوشك على قذف حجر فى عينها ..

الشقة الضيقة كما هى .. والمطبخ الشبيه بقبر (أيّاح حتب) لو أن هذا الأخير كان ضيقًا إلى هذا الحدّ ..

العناق الحارّ التقليدى مع أمها ، وألف سؤال عن (شريف) وعن حياتها وعن .. عن حملها ..

يا للهول ! لقد نسيت (عبير) تمامًا أنها حامل .. لقد غرقت فى بحر الأساطير الإغريقية المتشعب ، وعاشت مع الخناقين الهنود ، وراحت تحاول الحفاظ على بنات أفكار (شكسبير) .. كل هذا أنساها تلك الحقيقة التى لا تصدق : أن هناك كائنًا حيًا ينمو ببطء فى مكان ما من أحشائها !

بدا لها الأمر غريبًا .. كأنه يحدث فى إحدى روايات الخيال العلمي ، حين يتسلل كائن فضائى إلى داخلك ، ويترعرع هناك حتى يستولى على وجودك كله(*) .

وتساءلت عن السبب الذى يجعل كل النساء فى العالم لا يندهشن لأمر مذهل كهذا .. لماذا يقبلنه كأمر مسلم به ؟!

نعم . هى حامل .. وطفلها سيكون اسمه (عادل)

(*) للأسف لم تر (عبير) فيلم (الغريب) الذى أخرجه (ريدلى سكوت) ..

لو أراد الله أن يأتى للكون حيًا وذكرًا .. (عادل شريف) اسم سخيف نوعًا يبدو أقرب إلى أسماء أبطال القصص .. لكن (شريف) اختار الاسم ولا رادّ لاختياره ..

قالت لأمها بصوت مبحوح :

ـ « بخير يا أماه .. بخير .. »

قالت أمها وهى تدسّ فى فمها بعض حبّات العنب :

ـ « كلى .. كلى .. لا تنسى أنك مسئولة عن إطعام اثنين .. »

حقًا .. إن عاطفة الأمومة شىء طبيعى فى كل أنثى .. لكنها ـ (عبير) ـ تختلف عن كل أنثى .. كل ما تشعر به هو الدهشة والذعر ..

تغلبت على خواطرها الرهيبة ، ومن جيب حقيبتها أخرجت حفنة من الأوراق المالية ناولتها لأمها ، فتراجعت هذه فى كبرياء صائحة :

ـ « لكن .. ما الذى جعلك تظنين أن ؟ لا »

لكن (عبير) تملك ألف سبب للظن .. دائمًا هناك ألف سبب ..

وهى تعرف أن أمها ستأخذ المال دائمًا .. إن ورطة

هذه الأسرة لن تنتهى إلا بالموت ، وأخوها لم يعد يعمل .. وتكاليف مدارس إخوتها بعد اختراع هذا الشىء الجديد اللعين المسمى (الدروس الخصوصية) ..

وتقول الأم لـ (عبير) أن تضع لها الأوراق المالية فى صدر ثوبها ؛ لأن يديها ملوثتان بالطعام الذى تعدّه .. ثم تدعو لها ولزوجها بسعة الرزق .. الحق أن (عبير) محظوظة جدًا .. فتاة فى ظروفها المالية والجمالية والعلمية لا يمكن أن تظفر بـ (شريف) ، إلا على شاشة السينما .. إن (عبير) تعرف جيدًا أن (شريف) لم يبدأ بحبها .. بل بدأ بالإعجاب بعقلها المجرد من الذكاء .. ثم تسلل إلى حياتهما ذلك الشىء السحرى الذى يسمونه الحبّ ..

لهذا لم يرض زواجها من (شريف) كبرياءها كأنثى قط .. لكن من قال إن المرء يجب أن يظفر بكل شىء فى الحياة ؟

ـ « أين أخواتى ؟ لقد تأخرن فى المدرسة .. »

قالت الأم وهى تمسح أنفها بمعصمها إثر رائحة البصل :

ـ « لم يأت موعدهن بعد .. لقد جئت مبكرة اليوم .. »

نظرت (عبير) لساعتها ، ووجدت أنها الثانية عشرة .. لقد حان وقت الانصراف .. لثمت خدّ أمها وقالت إنها تتمنى لو ساعدتها لكن الوقت قد حان ..

ـ « ألن تشربى القهوة معى ؟ لحظة حتى أعدّ (السبرتاية) و(الكنكة) .. »

ـ « لا وقت يا أماه .. أبلغى تحياتى لأخواتى .. »

وهرعت تنزل فى الدرج المتآكل عائدة إلى عالمها الآخر ..

* * *

دخلت إلى شقتها الفاخرة فى (العجوزة) ، فطوحت بحقيبتها وحذاءيها .. واستعدت لدخول المطبخ كى تبدأ (عبء الأنوثة) كما تسمى هى الطهى ..

لكن شيئًا ما أثار ريبتها ..

بالأحرى أثار ريبتها صوت ما ..

صوت قادم من غرفة الكمبيوتر ....

* * *

٢ ـ إنهـــم هنـــا !

الأحلام قد تجعل أيامك جحيمًا ...

★ ★ ★

بالواقع كان هناك من يقف فى غرفة الكمبيوتر ..
وكان يتأمل الجهاز فى فضول .. حتى قبل أن ترى (عبير) وجهه ـ لأن ظهره كان لها ـ أدركت أنه مرعب ..

كان فارع القامة مسربلاً بالسواد .. وبدا لها مألوفًا إلى حدّ ما .. أين رأيت هذه الثياب العجيبة من قبل ؟

استدار نحوها .. وهنا رأت القناع الغريب الأسود الذى تتدلّى منه الخراطيم وتشعّ منه الأضواء ..

شهقت وهى تتراجع للوراء :

ـ « (زولتار)(*) ! »

ـ « نعم (زولتار) الشرير الذى كان يسيطر على

(*) نقترح ـ لو كان عندك وقت ـ أن تراجع الأعداد السابقة عنها .. فسوف نتحدث عنها كثيرًا ..

استدار نحوها .. وهنا رأت القناع الغريب الأسود الذى تتدلّى منه الخراطيم ، وتشعّ منه الأضواء ..

الإمبراطورية فى حلمها القديم الفضائى .. لقد واجهت (زولتار) فى (إمبراطورية النجوم) .. ولم تستطع أن تسحقه ، لكنها ظلت حية على الأقل .

قال وهو يستدير نحوها بالكامل ، وصوته الرنّان يدوّى فى أرجاء شقتها :

ـ « (ليا) .. هكذا أوثر أن أناديك .. ما زلت لا أفهم سرّ هذا الاستقبال الخالى من الحفاوة .. »

صاحت متراجعة للوراء أكثر :

ـ « هذا لن يكون .. أنت وهم ! »

ازداد توهج أضوائه وهو يضحك .. وقال :

ـ « وهم ! دعينى أسأل ضميرك بصراحة : هل أبدو وهمًا ؟ »

بصراحة : لا ..

إنه حقيقى .. له ثقل وهيبة ورهبة كل ما هو حقيقى ..

ولكن كيف ؟ أين ؟ ولماذا ؟

صاحت متراجعة أكثر فأكثر (واضح أنها ستخرج من الشقة بعد قليل) :

ـ « أنت .. حلم .. لا وجود لك إلا فى عقلى ..

أنا التى أوجدتك وجعلتك تمرّ بمغامرة كاملة معى .. هذا كل شىء .. »

أخرج من ثيابه ما يشبه مقبض سيف دون نصل ، ولوح به فى الهواء ، عندها تذكرت هى كنه هذا الشىء : سيف (ليزر) ..

قال وهو يضغط المقبض ليخرج الشعاع الفوسفورى المتألق ، الذى يقصر ويطول حسب اتجاه المقبض :

ـ « دعينى أبرهن لك على أننى لست حلمًا ! »

ثم تردد هنيهة ونظر إلى السيف .. وغمغم :

ـ « لكنى لا أستطيع قتلك يا (ليا) .. ليس قبل أن أظفر به ! »

ـ « هو ؟ »

ـ « من غيره ؟ (الجوّال) طبعًا ! »

كان يقف الآن فى الصالة .. ورأت (عبير) أن حذاءه العملاق كان ملوثًا بالوحل الأحمر ، وأنه ترك آثارًا قذرة على (الموكيت) ..

جعل هذا جنونها يجنّ .. فهى تمقت الأوهام التى تلوّث شقتها ، خاصة بعد ما نظفتها بعناية أمس ..

قالت فى عصبية :

ـ « اسمع .. تستطيع أن تقتلنى كما تشاء .. لكنى لن أسمح لك بأن تلوث (الموكيت) النظيف ! »

نظر إلى حذائه ، وقال فى كياسة وهو يغلق السيف :

ـ « آسف .. لكنى قادم فورًا من كوكب (سلايم) حيث المستنقعات فى كل مكان .. وعلى كل حال لا تنسى أننى شرير .. شرير مطلق من الذين يدخنون ويشربون الخمر ويركلون الكلاب ويلوثون السجاجيد .. إن هذا لا يتجزأ كما تعلمين .. »

جلست على الأريكة ، ووضعت ساقًا على ساق محاولة أن تهدأ ..

إن كل هذه هلاوس .. هلاوس مريعة لا أكثر ..

ربما كان الحمل هو الذى ؟

قالت وهى تتنفس بعمق :

ـ « حسن .. أنت تريد (الجوّال) عدوك العتيد .. يمكنك أن ترى أنه ليس هنا .. »

ـ « بل هو هنا .. واسمه الحالى (شريف) .. إنه زوجك الآن ! »

ـ « هـ .. من قال هذا ؟ »

ـ « أشياء كهذه لا تخفى على (يونيفرس) .. جهاز الكومبيوتر العملاق فى (جالاكتيكا) .. »

نعم .. هذا منطقى .. ففى حلمها كانت تلعب دور (ليا) ، وكان (شريف) هو (جوّال الفضاء) الذى لا يُقهر ..

من الطبيعى أن يرغب شرير الحلم فى قتل (شريف) ..

تنهدت وعقدت يديها على صدرها ، وفى نفاد صبر قالت :

ـ « اسمع .. أنا أريد الخلاص منك .. قل لى ما ينبغى عمله .. »

ـ « لا شىء .. سأنتظر هنا حتى يعود زوجك .. ثم ..... »

ـ إن الأوهام لا تقتل حتى لو كانت ملوثة القدمين مثلك .. »

ـ « فلتر .. إننى انتظره يقظًا كحيوان (الموركا) .. »

ووقف كالتمثال فى منتصف الصالة ينتظر ..

★ ★ ★

إن الأحلام قد تكون سمجة جدًا ..

★ ★ ★

سمعت صوت المفتاح يولج في الباب ..

لقد عاد (شريف) إذن ...

توتر (زولتار) وأخرج مقبض سيفه من جديد .. لكنها لم تشعر بخوف .. لقد كان يقينها بأن كل هذا وهم كافيًا ..

كل خوفها هو أن يظل هذا الشيء ماثلاً أمام عينيها طيلة الوقت ..

سمعت صوت خطوات .. وظهر لها القادم ..

لم يكن (شريف) ..

كان رجلاً وسيمًا فارع القامة ، يرتدي بذلة السهرة ، وفي يده اليمنى مسدس ، وفي اليسرى قداحة ذهبية يشعل بها لفافة تبغ .. ويبتسم في ثقة ..

صاح (زولتار) محنقًا :

- « ومن أنت أيها الأراجوز ؟ »

قال الوافد الجديد في ثقة :

- « إنني أدعى (بوند) .. (جيمس بوند) ! »

وانطلقت رصاصة من المسدس جعلت الشقة ترتج

بصوت الرعد ، وعلى الفور رأت (عبير) دخانًا أزرق يخرج كثيفًا من جزء في قناع (زولتار) ..

يبدو أن الرصاصة قد نسفت صمامًا ما ..

صرخ (زولتار) وهو يحاول أن يسد التسرب :

- « يا أحمق ! لقد هشمت الصمام (٣٥٨ ـ ٢٢ ـ أ) .. لقد توقف إمداد (النتروجين) ! »

نفخ (بوند) فوهة مسدسه ، ثم قال بنفس أسلوبه الواثق :

- « الرصاصة التالية ستكون ذات أثر مؤسٍ .. لذا أقترح أن ترحل حالاً .. ولتجد سباكًا جيدًا .. »

- « عليك اللعنة ! »

قالها (زولتار) وهو يهرع مغادرًا الشقة تاركًا وراءه خيطًا من الدخان الأزرق ..

أما (عبير) فكانت في أسوأ حال ..

رفعت ساقيها إلى الأريكة ودفنت وجهها في كفيها ، وراحت تولول :

- « لقد جننت ! كنت أعرف هذا . لقد حذرني (شريف) مرارًا من تجربة (فانتازيا) هذه ! »

قال (بوند) في رقة وهو يربت على كتفها :

- « لا أرى ما يدعو لكل هذا العويل يا (ناتاليا أولجانوفا) .. »

ضربت يده فى هستيريا .. وصاحت :

- « اسمى هو (عبير) ! »

- « ليكن .. (عبير) . (ناتاليا) .. إن أسماء العملاء السريين لاتهمّ لأنهم لا يكفون عن تغييرها .. »

- لست عميلة سرية .. أنا مجرد زوجة ، أنتظر عودة زوجى .. وعلىّ أن أعدّ له الغداء . »

- « لا أرى ما يضير فى هذا .. »

ونظر حوله متسائلاً :

- « لكن هل يوجد مانع من أن أتناول كأسًا من (الفودكا) التى تمّ هزّها ولم يتم خلطها ؟ »

- « لا يوجد لدينا أى نوع من (الهباب) .. »

ثم رفعت عينيها نحوه متوسلة .. وهمست :

- « أرجوك أن ترحل .. أنت تعرف كما أعرف أنك وهم .. مثلك مثل ذلك التيس الأسود الذى كان يقف هنا منذ دقائق .. »

- « الأوهام لا تطلق الرصاص .. »

ثم أعاد تنسيق سترته ، وأطفأ لفافة تبغه فى

المطفأة الزجاجية ، وانحنى فى فروسية ليلثم يدها ، وبطريقة مسرحية قال :

- « العميل (٧..) فى خدمتك يا سيدتى . حفظ الله الملكة .. »

وفى تؤدة اتجه إلى باب الشقة . وسمعت (عبير) تغلق القفل ..

أخيرًا انتهى هذا (المورستان) ...

مؤقتًا !

* * *

٤- رحلوا .. ولكن ...

- « ولكن المجانين لا يعرفون أنهم كذلك .. »

كانت الصلصة قد بدأت تنضج وانفصل عنها الدسم فأطفأت الموقد وراحت تقطع الدجاجة إلى أرباع متساوية توطئة لأن .

غثيان ! أووع ! اللحم يا له من شىء مقزز .. طرى ولزج ومقزز !

هرعت إلى الحمام وأفرغت ما بجوفها ، ثم غسلت وجهها بالماء البارد لا بأس .. إنها تتحسن نوعًا برغم الدوار ..

نظرت إلى اليمين فرأت شيئًا أثار اهتمامها ...

إن ستارة الحمام تتحرك !

الستارة شفافة تسمح بأن ترى ظلال الواقف وراءها .. والظلال التى رأتها لم تكن مريحة أبدًا كأنه رجل واقف يمسك بين يديه حبلاً ، وقد انحنى للأمام برهف السمع !

لقد رأت هذا المشهد مرارًا من قبل ..

ودون أن تتحرك أكثر من اللازم مدت يدها إلى الخرطوم البلاستيكى الذى يملأ الغسالة الصغيرة بالماء الساخن . كانت مصرة على أن يبتاع لها (شريف) هذا الخرطوم ، لكنه لم يفعل كالعادة . قال لها إنه لا يملك أدنى فكرة عن المكان الذى يبتاع منه الناس الخراطيم ..

اعتصرت طرف الخرطوم بيد ، ووضعت يدها الأخرى على صمام الماء الساخن وراحت تنتظر حابسة أنفاسها ..

وبعد ثوان انفتحت الستارة ، وبرز الرجل عارى الجذع ، ذو العمامة ، الذى تغطى لحيته صدره ، والذى يصرخ كالمجنون وهو يثب من حوض الغسيل نحوها .

إنه خناق .. خناق كالمئات الذين قابلتهم فى الهند يوم كانت هناك فى أحلامها ..

وعلى الفور أدارت يدها صمام الماء ..

انطلق الماء الساخن كالنافورة فى وجه المهاجم ..

وشمت (عبير) رائحة البخار مختلطا برائحة أخرى ..

ربما اللحم المسلوق مثلاً ..

صرخ الرجل صرخة من يقع فى بئر الجحيم وغطى وجهه ، ناسيا أن له بطنا وساعدين يمكن حرقها بشىء من الجهد ..

كانت الجرعة كافية ، فسرعان ما أطلق ساقيه للريح فارًا من الحمام وهو يعوى كالكلاب . وتعثرت قدماه المبتلتان فى (السيراميك) فهوى أرضا ، لكنه استعاد اتزانه وواصل الهرب ..

وأخيرا استطاعت (عبير) إغلاق الصنبور

وأخيرًا استعادت أنفاسها الهاربة ..

تبا ! وهم آخر من أوهامها ولو كانت أقوى أعصابًا لسخرت منه ، لكنه بدا لها حقيقيًا أكثر من اللازم .

إن الأمر خطير حقًا .

★ ★ ★

أخيرًا جاء (شريف) ، وهى تتهيأ لتنظيف الشقة .

إنه ـ ذلك الأحمق ـ لا يجىء أبدًا فى الوقت المناسب ..

وأقسمت أن تركله لو أنه قال لها الجملة السخيفة المعتادة : يا لشحوبك ! كأنك قد رأيت شبحًا !

فالحقيقة هى أنها رأت أشباحًا كثيرة ..

سألها عن أحوالها .. فقالت له إنها تقيأت .. وحاولت أن تبدو متماسكة .. فالهلاوس ـ عامة ـ ليست من الأشياء التى تُذكر علانية ..

قال لها وهو يربت على شعرها :

ـ « يا لشحوبك ! أشعر كأنك قد رأيت شبحًا ! »

تحركت ركبتها تلقائيًا ـ لأعلى .. ثم تراجعت وقررت أن تحنث بقسمها .. فقد بدا لها ركل زوجها أمرًا غير معتاد نوعًا ..

ثم راح يجول بعينيه فى المكان .. إن (شريف) ذكى قوى الملاحظة ..

لهذا سيكون هو الفيصل فى حقيقة ما رأته ..

انحنى يتفحص (الموكيت) ثم سألها فى حيرة :

ـ « ما كل هذا الوحل الأحمر ؟ »

ثم نظر إلى آثار الأقدام المبتلة الحافية ، وبدا مرتابًا :

ـ « ما هذه الفوضى ؟ »

قالت وهى تكنس الوحل الذى كان قد جف تمامًا :

ـ « لا شىء .. إنه السباك .. السباك .. نعم »

- « لا بد أنه كان يعمل فى جهنم حين استدعيته .. »

- « حذاؤه متسخان .. نعم .. إنه ذلك الخلاط اللعين فى الحمام .. زوجة البواب أحضرته لى .. لا .. لا .. نزلت وأحضرته بنفسى .. السبّاك لا الخلاط طبعًا .. وحل أحمر كثير .. »

كانت تتحاشى نظراته مما زاد الأمر سوءًا ..

ورأته يدنو من المطفأة الزجاجية فيلتقط عقب لفافة التبغ منها .. فيتأمله فى اهتمام ، ثم يقول مفكرًا :

- « (بنسون آند هدجز) .. يا له من سبّاك راقى الذوق ! فى صباى كان السباكون لا يدخنون سوى (الجوزة) .. »

ثم أردف وهو يدسّ العقب فى جيبه لسبب لا تدريه :

- « كان خطأ أن تسمحى له بالدخول وأنت وحيدة ها هنا .. إن هذه القصص تنتهى دومًا على منضدة التشريح .. »

- « فأل الله ولا فألك .. »

وفكرت : كان يجب أن أحكى له كل شىء حتى لا يشك فيما لا ينبغى أن يشك فيه ..

أما هو ففكر : خيانة ؟! لا .. (عبير) ليست من

هذا الطراز .. إنها تخفى شيئًا .. فى الغالب زيارة من أخيها العاطل يقترض منها مالاً .. أو ذكرى ما مشينة من ماضيها .. لكن لا شىء سوى هذا ..

أنا لا أحب أن أخدع .. لكنى سأحترم رغبتها فى الصمت ما دمت أعرف جيدًا أنها لا تخوننى ..

* * *

- « (عبيبير) ! تعالى ها هنا .. »

بلغتها الصيحة العصبية فى المطبخ ، فتلكأت قليلاً ريثما تصبّ له القهوة فى القدح بحذر ، كى لا يتلاشى (الوش) .. ثم هرعت إلى غرفة الكمبيوتر حاملة القهوة وكأسًا من الماء البارد ..

كان (شريف) جالسًا أمام شاشة الكمبيوتر ، وهو يحرك (الفأرة) فى جنون باحثًا فى الملفات جميعًا ..

فما إن رآها حتى هتف فى ضيق :

- « ماذا فعلت بالجهاز أمس فى أثناء مغامرتك الحمقاء ؟ »

وضعت القهوة جواره ، ومالت على المنضدة تتأمل الشاشة وقالت :

ـ « لا شيء .. طلبت برنامج (دى ـ جى ـ ٢) لا أكثر .. »

ـ « ولم تعبثى هنا وهناك ؟ »

ـ « أنا لا أفهم حرفًا من هذا الهراء على الشاشة .. »

رشف رشفة من القهوة .. وقال مهمومًا :

ـ « لا أثر له .. (دى ـ جى ـ ٢) غير موجود فى الذاكرة .. »

غريب هذا ! إما أن هذا صحيح وإما أن (شريف) يحاول التملص من مسئولية إزالة برنامجه ..

ـ « أليست لديك نسخة أخرى منه ؟ »

حك رأسه فى توتر .. وقال :

ـ « نعم .. كانت لدىّ نسخة أخرى لكنها على أقراص مرنة .. والحق أننى لا أذكر أين وضعتها .. »

ـ « وماذا عن محاولة استعادته ؟ »

ـ « تعنين الأمر Undelete ؟ للأسف هو لا يعمل فى كل الأحوال .. وعلى الخصوص الآن . ومعنى هذا أن البرنامج فقد فيزيائيًا .. »

لم تجد مبررًا للجدال فصمتت ..

لكنها فى قرارة نفسها اعتبرته ممثلاً كبيرًا ..

ولامته على أنه يحاول حرمانها من (فانتازيا) ..

★ ★ ★

وجاء الليل ...

جلسا فى الفراش يتابعان سهرة منوعات سخيفة فى التلفزيون ، وتناولا عشاء من الشطائر .. ثم أعلن (شريف) أن جفنيه أثقل من الجلاميد .. لذا مدت (عبير) يدها إلى الأباجورة فأطفأتها .. وإلى جهاز الـ (ريموت) فأغلقت التلفزيون ، ثم دفنت رأسها فى الوسادة شاعرة بالحسد لـ (شريف) .. إن ضميره صاف تمامًا .. وصفاء الضمير يتناسب مع ارتفاع الشخير وسرعة ابتدائه ..

وفى الظلام راحت (عبير) تفكر فى أحداث يومها ..

الأكيد أنها جنت أو فقدت عقلها ..

الأكيد أنها على حافة انهيار عصبى ..

إن الحمل يحدث تغيرات نفسية كثيرة .. لكنها لم تسمع قط عن حامل قابلت (جيمس بوند) فى صالة دارها ..

هذا هو الخبال بعينه ..

الخبال الذى تراه فى كل روايات (دستويفسكى) حين يلقى البطل أشخاصًا لا وجود لهم ، بما فيهم نفسه

والأكثر مدعاة للغيظ ذلك الشخص الذى يتحرك الآن فى الصالة .

تصوروا أنه يقف الآن على باب غرفة النوم يتهيأ للدخول ؟

يا للهلوسة !

★ ★ ★

٥- أيـام بلا حلم ..

تحرك الظل دانيًا من الفراش ..

من الناحية التى ينام فيها (شريف) ، وهو مستمر فى غطيطه المنتظم .

★ ★ ★

لقد كانت أمسية يوم شاق ..
ظللت أعمل فيه كالكلب ..
لقد كانت أمسية يوم شاق ..
وكان لا بد أن أنام كلوح الخشب ..
لكن ما إن أعود لدارى ، وأرى ماصنعته لأجلى ..
حتى أشعر بأننى على ما يُرام ..

[أغنية قديمة لفريق الخنافس تعلمتها من (شريف)]

★ ★ ★

مألوف هو بعباءته السوداء المبطنة بالأحمر ..
ومألوف بخطواته المتلصصة الشبيهة بخطوات وطواط .. لو أن الوطاويط تمشى ..

وطواط ؟

وهبت (عبير) جالسة كالملسوعة ، وأضاءت الأباجورة بجوارها ، فلم يزد (شريف) على أن زمَّ عينيه بقوة وقد آلمه الوهج .. لكنه ظل نائمًا ..

أما صاحب الظل فتراجع للوراء ، ورفع الذراع المغطاة بالعباءة ليحجب الضوء عن عينيه .

ثم كشف عن وجهه ببطء .. وتذكرت (عبير) على الفور أصدقاءها القدامى فى (والاشيا) . خاصة الوطواط الآدمى المعروف باسم (دراكولا) .. والذى استضافها فى قصره فى ليلة سوداء ..

جلستَ فى الفراش ، وسألته فى سأم وبصوت هامس :

ـ « هذا أنت يا كونت ؟ كنت أنتظرك .. »

قال بصوته الهادئ الذى يضغط على مقاطعه :

ـ « وماذا جعلك تنتظرين يا فتاة ؟ »

ـ « لأن هناك الكثير من الهراء فى يومى هذا .. »

ـ « أنت تهينين سيد الديجور بهذا الكلام .. »

ـ « وماذا تريد يا سيد الديجور ؟ »

ـ « ما يريده أى مصاص دماء من فتاة شابة طازجة الدماء مثلك .. »

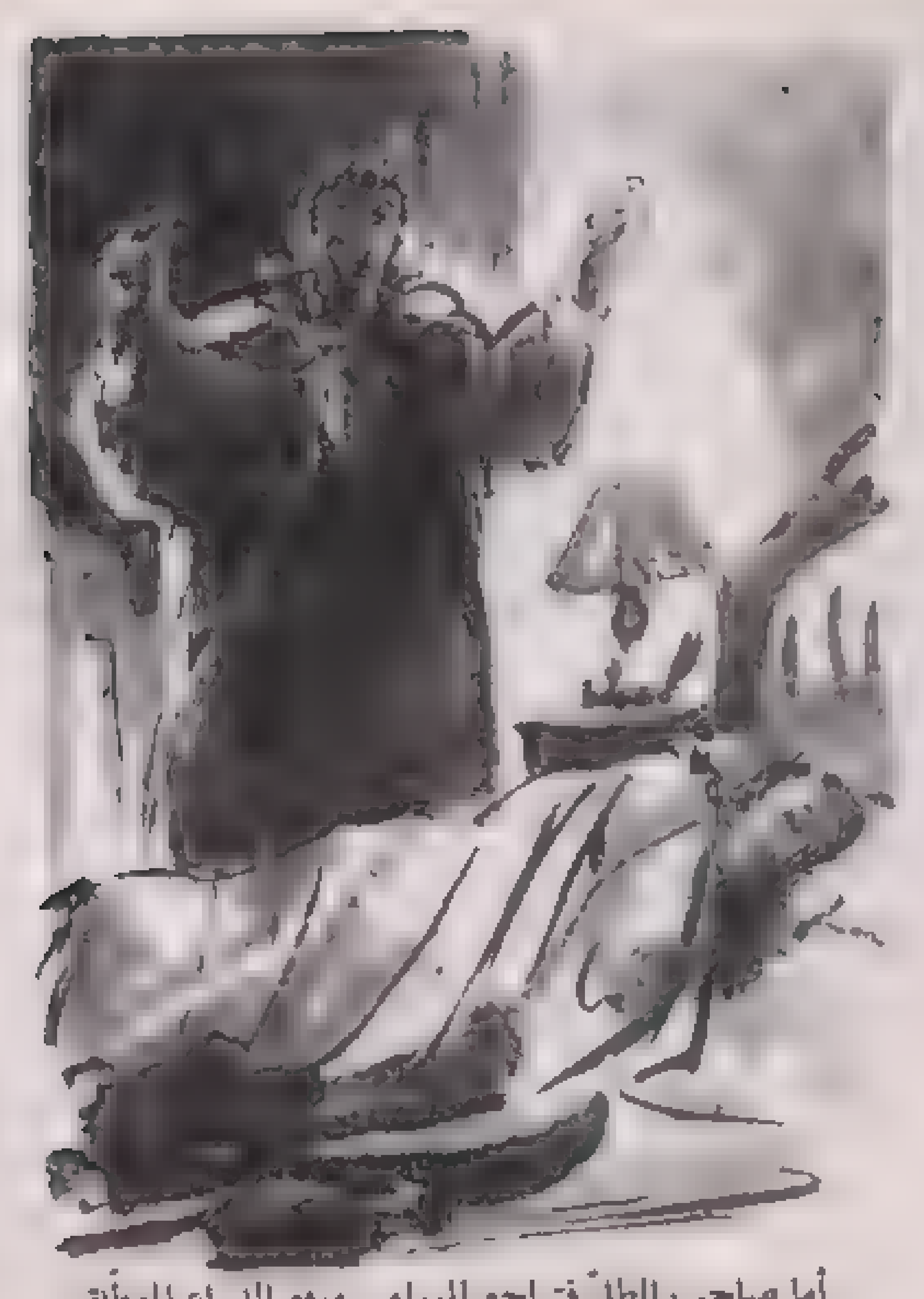

أما صاحب الظلّ فتراجع للوراء ، ورفع الذراع المغطّاة بالعباءة ليحجب الضوء عن عينيه ..

قالت في ضيق :

ـ « حسن .. ليكن بسرعة وفي صمت لأنني لا أريد أن يصحو (شريف) .. »

إنه حلم آخر .. وككل أحلام يومها يبدو حقيقيًا تمامًا ..

أحلام تلوث الأرض بالوحل الأحمر ، وتترك أعقاب سجائر ..

لكنها أحلام .. أحلام (هيلة) كما يسميها علماء النفس ، تترك رعبًا وجزعًا في النفس .. لكنها لن تفسد حياتها ..

نهضت بثبات من الفراش ، ومشت في تؤدة نحو الرجل فارع القامة المسربل بالسواد .. وفكت شريط الياقة كاشفة عن عنقها النحيل الزاخر بالأوردة .. وأشارت إليه بسبابتها ..

لا بد أن هذا السلوك المرحب أثار دهشة مصاص الدماء بل وقلقه .. إلى درجة أنه تراجع إلى الوراء خطوتين .. ثم سألها :

ـ « ألست خائفة ؟ »

ـ « أنا أعلم أنك لا تسعد إلا بضحية مذعورة ..

ويؤسفني أن أخيب أملك .. لكنني ـ أعرف ـ أشعر أنني أشاهد فيلمًا مرعبًا لا أكثر .. »

هزّ رأسه في ضيق .. ثم دنا منها ..

رائحة الموت المميزة في أنفاسه ، والتي اعتادت أن تشمها في الماضي . عباءته تحيط بها و الظلام ..

وهنا خطر لها للحظة خاطر مروع : ماذا لو لم تكن تهلوس ؟!

لكن الوقت صار متأخرًا جدًا لأن :.

* * *

ثم سمعته يشهق في ذعر ...

وانزاحت العباءة عنها .. ورأته يتراجع ..

كان يرمق الباب في جزع . وتابعت عيناها ما يراه فوجدت رجلاً أشيب ذا عينين منهكتين ، وعوينات تتدلى على أنفه ..

كان يرفع يده اليمنى .. وفيها رأت (عبير) صليبًا ذهبيًا يتوهج في ضوء الأباجورة .. وكان هذا كافيًا لتفهم ..

قال الكونت وهو يتراجع للوراء :

– « بارون (فان هلسنج) إن الفتاة لى منذ الأزل .. »

قال البارون بلغته الألمانية المضحكة :

– « قاعدة تحتاج إلى إثبات .. »

وأشار إلى الباب بإبهامه .. وقال :

– « والآن أرجو أن ترحل قبل أن يجىء دور الأوتاد فى القلوب .. »

– ستندم يا (بارون) ! »

وفى اللحظة التالية لم يعد (دراكولا) فى الغرفة .

وطواط صغير دار دورة واحدة فى الهواء .. ثم حلق طائرا من الباب .. وكان هذا كافيًا . فقد رأينا هذا المشهد مرارًا ..

قال لها (البارون) وهو يتجه نحو الباب بدوره :

– « حذار يا فتاة . حذار .. لقد خرج (سيد الديجور) ليفوز بك .. وهو لا يقنط بسهولة .. »

ثم غادر الغرفة . ووجدت (عبير) نفسها تنظر إلى الباب المفتوح فى بلاهة ..

نظرت إلى (شريف) النائم كضمير سفّاح ، وتساءلت عن شعوره لو علم بأن هذا السيرك يقدم عروضه فى داره .. بل وفى غرفة نومه .

هل تصدق ما تراه أم لا ؟

لقد كان يومًا طويلاً أسود ..

لكن الغد قد بدأ منذ ساعة . ولربما لو ظفرت ببعض النوم بدورها لأفاقت واجدة أن الأمور أفضل وأكثر استقرارًا ..

وهكذا أغلقت باب الحجرة بعناية . ثم اندست فى الفراش وأطفأت الأباجورة ، وغرقت فى نعاس طويل

* * *

لكن الصباح لم يكن أفضل حالاً .

لقد بدأت يومها بالقىء فى الحمام . وهو نشاط يومى لم يرق بعد لأن يكون عادة محببة .

وهو ذا (شريف) جالس إلى مائدة الإفطار ، يقرأ الجريدة ويلتهم البيض والجبن .. ثم يقول لها – وقد رأى وجهها المكفهر – إنها تبدو له كمومياء ، وإن عليهما الذهاب إلى الطبيب اليوم لمتابعة حملها

وعند الظهيرة يأخذها بسيارته إلى عيادة الطبيب ، الذى يضع كريمًا ما على بطنها ثم يلصق سماعة جهاز – باردة جدًا – ليجعلها تسمع صوت الـ (تيك تاك) المميز لقلب الجنين

عندها ارتجف فؤادها رعبًا ..

ومع الرعب شعرت بشىء غامض يتلاعب فى روحها : الحنين .. الحبّ لهذا القلب الصغير الذى يخفق كساعة فى مكان ما من أحشائها ..

وهمست فى سرّها :

ـ « ربّاه .. إن هذا البرىء الصغير لا يستحق أمًّا مجنونة .. رباه لا تدع هذا يحدث .. أمتنى أو أمته قبل أن أفقد عقلى تمامًا .. »

كان الطبيب مطمئنًا .. وقال لها إن الدوار والقىء هما ضريبة الأمومة ، وعليها أن تتحملهما كما يفعل الرجال .. أعنى النساء ..

وموعد الولادة بعد ستة أشهر ..

بدت لـ (عبير) فترة لا بأس بها أبدًا .. كأنها إجازة طويلة قبل الألم والصراخ .. من يدرى ما قد يحدث فى ستة أشهر ؟ لربما نشبت الحرب النووية أو قامت القيامة أو ماتت هى ...

يجب أن تحتفظ بالأمل فى حدوث شىء ...

* * *

لكن الأيام تمضى ....

أيام لا حصر لها قضتها كالعادة فى القىء أو الدوار أو إعداد الطعام أو تنظيف البيت ـ بحذر طبعًا ـ أو زيارة أمها ، أو زيارة أهل زوجها ..

اعتادت الشعور بركلات الصغير فى بطنها .. وتخلت عن ثيابها القديمة لتستبدل بها ثياب الحمل المضحكة الشبيهة بالأجولة ..

وتورمت قدماها كثيرًا كأنما هما قربتان ملوثتان بالماء .. وصار ظهرها يؤلمها كأنما تم كسره فى ظروف غامضة ..

إن الحمل مغامرة من نوع خاص .. مغامرة رهيبة .. لكنه لا يخلو من بهجة الترقب ...

وفى تلك الفترة قرأت أطنانًا من المجلات والروايات .. وأدركت أنها لو استطاعت العودة إلى (فانتازيا) ستخوض مغامرات لا تصدق ولا يمكن حصرها ..

لكن كيف السبيل إلى (فانتازيا) وقد ضاعت تذكرة السفر ؟!

* * *

نسيت أن أقول إن أحدًا من الإخوة أبطال أحلامها لم يزرها قط طيلة هذه الفترة ..

لم تفتقد أحدًا منهم . وبدأت تدرك أن ما مربها كان هلوسة منبعها الإرهاق فى ذلك اليوم ..

لا بد أن (دى - جى - ٢) لم يكن يؤدى عمله جيدًا .. فى البدء أقحمها فى أربع مغامرات مرة واحدة ، ثم جعلها تمرّ بنوع من أحلام اليقظة ..

لكن كل شىء على ما يرام الآن ...

على ما يرام إلى درجة مملة حقًا !

* * *

٦- إخوان الدم ..

وحدث كل شىء فى الرابعة صباحًا فى يوم حارّ من (يوليو) ..

يقولون إن الولادات تحدث دائمًا فى الليل .. والحقيقة أن الولادة تستغرق وقتًا طويلاً ، لهذا لا بد أن يحدث جزء منها فى الليل : بدايتها أو نهايتها .. لكن أطفال النهار موجودون حولنا فى كل مكان .. و(عبير) نفسها كانت من أطفال النهار ..

إنها لا تذكر الكثير سوى الألم الممض ، والرحلة بسيارة (شريف) إلى المستشفى ، وتجربة مشاهدة الكون كله فى وضع راقد حيث السقف المرصع بالنيون هو أرضية العالم ..

ألم ثم ألم ثم ألم ثم عواء الرضيع . ووجوه باسمة ملوثة بالعرق تخبرها أنها رزقت ببنت .. حمدًا لله . لن تضطر إلى استعمال اسم (عادل شريف) الذى كانت تخشاه ..

وكان (شريف) يؤدى واجبه كأى أب مخلص :
يلتهم المزيد من أقراص النعناع ، عوضًا عن التبغ ،
ويبكى بحرقة ..

وحين لثم يدها بعد خروجها من غرفة التوليد ،
سألته منهكة :

- « بِمَ نسميها ؟ »

كان فى حالة من التفتح الروحى .. فقال لها :

- « نسميها (عبير) طبعًا .. »

- « لا ... ! »

لم تكن تريد (عبير) أخرى تعانى ما عانته هى ..
ستكون الطفلة هى كل شىء لم تكنه هى .. لهذا
ستطلق عليها اسمًا مختلفًا ..

- « فلنسمها (فانتازيا) ! »

- « كفاك سخفًا ! »

حقًا هو اسم سخيف لفتاة .. إذن فلنسمها ...

- « (شذى) .. إنه اسم جميل عطر .. »

- « فليكن .. (شذى شريف) .. لا بأس بموسيقاه
أبدًا .. تبدو لى كشاعرة شابة أو صحفية نشطة .. »

- « هذا حق ... »

مغامرة غريبة هى ..
العودة من المستشفى وقد صار المرء اثنين ..
أحدهما يحمل الآخر على صدره .. بينما الصغير يعول
وينبح ويمارس كل هذه الأشياء العجيبة التى يهوى
الرضع ممارستها ..

وتجىء أمها .. وتجىء أم (شريف) .. وتبدأ
صداقة ما بين المرأتين القادمتين من عالمين مختلفين ..

كل هذا غير حقيقى ..

إنه أقرب إلى حلم من أحلام (فانتازيا) ...

* * *

ولم يزرها (إخوان الدمّ) إلا بعد شهر تقريبًا ..

كانت وحدها فى المنزل ، تغسل صحون الإفطار فى
المطبخ ؛ وقد فتحت جهاز الراديو لتسمع برنامجها
السرى المفضل (غنوة وحدوتة) وهو البرنامج الذى
لم تعتد أن تعتبر النهار نهارًا من دونه .. لكنها لم
تجرؤ قط على إعلان ذلك ، لتتقى سخرية الساخرين ..

كانت (شذى) نائمة أخيرًا بعد صراخ الليل بطوله
- كالعادة - وقد أعدت (عبير) لنفسها قدحًا من الشاى ،
راحت تسرق منه جرعات بيد ملوثة بصابون الغسيل ..

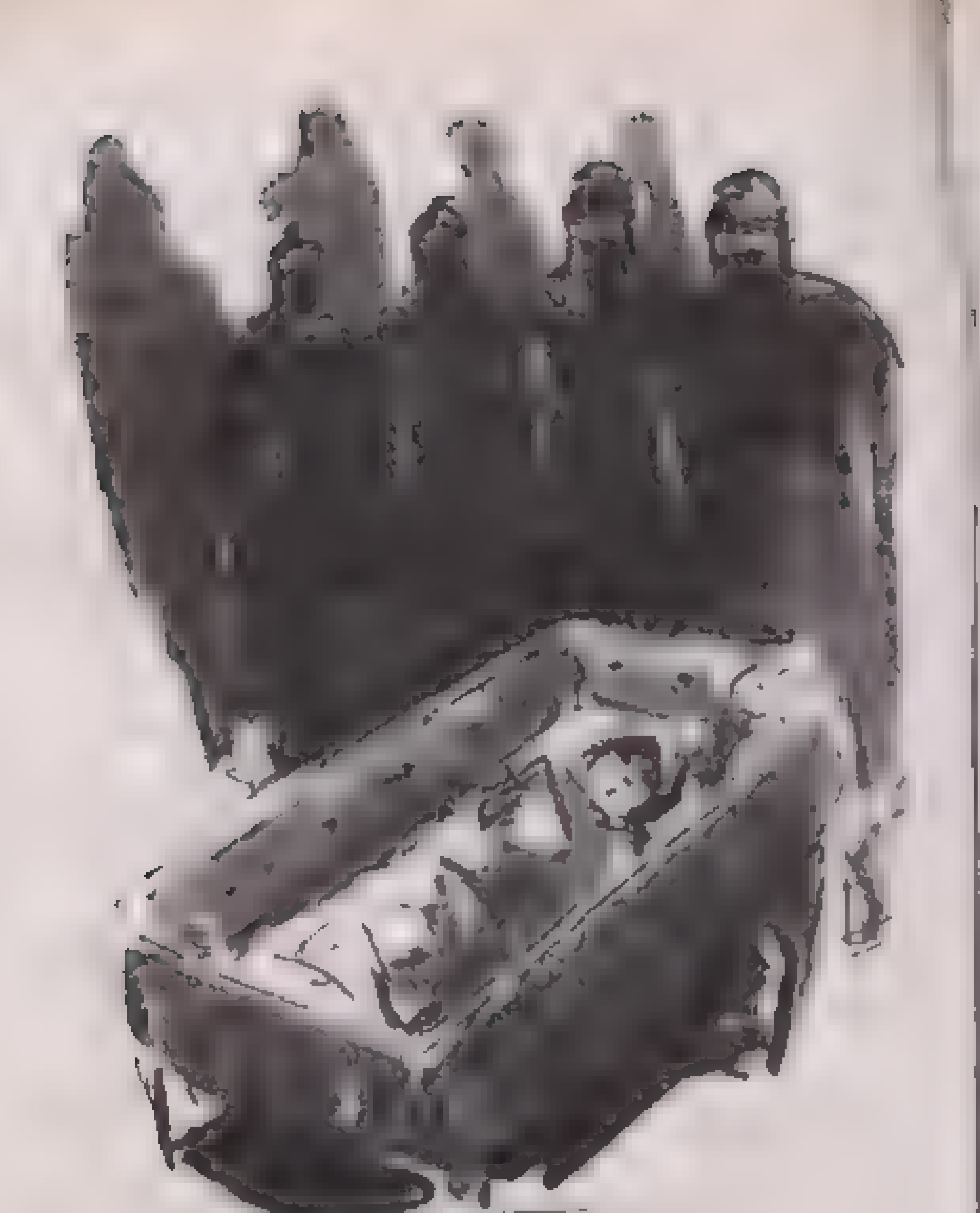

وهناك رأتهم يقفون حول مهد الصغيرة ..

حينما سمعت القسم يتردد فى أرجاء المنزل ..

- « ماذا تبتغون ؟ »

- « الدم ! »

- « كم تدفعون لأجله ؟ »

- « أرواحنا ! »

- « متى تكفون ؟ »

- « حين نرتوى ! »

ولم تنتظر حتى تسمع بقية القسم الذى كانت تحفظه عن ظهر قلب .. فهرعت - وفؤادها يتواثب - إلى غرفة الطفلة ..

وهناك رأتهم يقفون حول مهد الصغيرة ..

عرفتهم بثيابهم السود ووجوههم الملثمة التى لا يبدو منها سوى فتحات العيون .. وعرفتهم بالمدَى التى يحملونها ..

صرخت فى هستيريا وهى تنساب بين صفوفهم ، وهى تقدر أن عددهم حوالى عشرة .. ورفعت صغيرتها إلى صدرها ؛ وتساءلت :

- « ماذا تريدون ؟ »

- « الدم ! »

- « دعكم من هذا السخف .. أعنى ماذا تريدون حقًا ؟ »

قال كبيرهم وهو يرفع قبعته السوداء عن عينيه ..

- « لا شأن لنا بك يا (صخرة الماء) .. نحن نريد الطفلة »

- « ولأى غرض ؟ »

- « إنها ابنة (الجوّال) .. أى أنها منا .. لكن دمها ملوّث بالدم الهندى ، وعلينا أن نعمّدها بعماد إخوان الدم لنطهرها من الدنس .. »

إن هذا لكثير ..

تحولت (عبير) إلى هرّة أخذوا أطفالها منها - وهو مشهد مرعب لمن رآه - فاحتضنت الطفلة أكثر ، وقالت بصوت متحشرج من بين أسنانها :

- « حذار أن يدنو دان من هنا .. أعرف لكم وهم .. لكني سأريكم كيف تمزق أسنانى الأوهام ! »

مدّ نحوها يده المغطاة بقفاز جلدىّ أسود .. وقال بتؤدة :

- « أنت تجعلين الأمر عسيرًا علينا .. إننا لن نفعل سوى رسم النجمة الخماسية بحدّ السكين على صدر الطفلة ... و .. »

- « فقط ؟!! »

واندفعت قدمها فى ركلة عنيفة إلى بطنه .. تلتها بأن أنشبت أسنانها فى ذراع آخر .. وقبل أن يفهم الثالث ما حدث كانت قد غرست أظفارها فى تجويف العينين فى قناعه ..

كل هذا بينما ذراعها الأيسر يحتضن الصغيرة فى حنان صارم ..

لكن الكثرة تغلب الشجاعة .

وبشكل ما تمكن الباقون من الإمساك بهذه النمرة الشرسة .. وبشكل ما تمكنوا من تسميرها إلى الأرض .. واقتضاهم هذا أن يفعلوه بستة منهم ..

أخيرًا نهض كبيرهم على قدميه ، وهو يعتصر بطنه .. وقال وهو يستند إلى الحائط :

- « عليك اللعنة أيتها الهندية المتوحشة ! لعلك مزقت طحالى بهذه الركلة .. »

- « ابتعدت سنتيمترين للأسف ! »

- « ما علينا .. لنواصل مهمتنا .. »

ورفع المدية فى يده .. ثم أمر أحدهم أن يضع الطفلة على المهد وأن يكشف الثوب عنها ..

صرخت (عبير) فى جنون وهى توشك على
التملص من آسريها :
ـ « أيها الحيوان ! أنت وهم .. لا أكثر ! آمرك أن
تتصرف .. »
لم يردَ عليها ، كأنه جرّاح يوشك على إجراء جراحة
فى المخ ، ولا وقت لديه لهذا الهراء ..
هنا دوت طلقة رصاص ، وصرخت الطفلة فى
ذعر ..
الإنقاذ فى آخر لحظة .. هذا هو الأسلوب الذى
اعتادته (عبير) فى (فانتازيا) .. وكانت تتوقع
شيئًا كهذا ..
هو ذا (الجوّال) يقتحم الغرفة وفى يده ما يشبه
المدفع الرشاش البدائى . كان هو (الجوّال) الذى
عاشت معه مغامرتها فى "الغرب الأمريكى .. الرجل
الذى يحمل كل ملامح (شريف) زوجها ..
قال كبير (إخوان الدم) :
ـ « (جوّال) ! أنت صرت مصدر إزعاج دائم لنا .. »
قال (الجوّال) وهو يثب فوق منضدة جوار الباب :
ـ « دع الطفلة يا زعيم .. ومُر رجالك بالخروج

من هنا . لا أريد أن تنزعج الصغيرة من كل الدماء
التى ستراها لو أننى ضغطت زنادى .. »
فى اللحظة التالية حدثت أشياء كثيرة ..
أخرج أحد الملثمين مسدسه .. وأطلق (الجوّال)
رصاصة .. ووثبت (عبير) على المهد تحمى الطفلة
بجسدها .. وتلوّى رجلان وسقطا على الأرض فى
بركة دماء ..
ثم انهمر الرصاص من عدة جهات ..
ولم تجرؤ (عبير) على فتح عينيها .. ثم إن
ولولة الصغيرة جعلتها لا تسمع شيئًا مما يُقال ما بين
الطلقات .
لكنها عرفت أخيرًا أن المتحاربين غادروا الغرفة ،
وأن رائحة البارود تفعم المكان ، وأن دماء كثيرة
تلوث البساط والجدران ، وأن الجثتين لم تعودا هنالك ..
لقد أخذهما الملثمون معهم ..
نهضت واحتضنت الطفلة محاولة تهدئتها ..
وفى أذنها همست :
ـ « لو كان بوسعك الكلام لقلت لى ما إذا كنت
مخبولة أم لا .. »

لكن الصغيرة لا تتكلم .. ولماذا تتكلم وهناك عشرات الدلائل فى كل مكان من الغرفة ؟ الدماء فى كل مكان . ثقوب الطلقات فى الجدران وخدوش الأثاث ..

قبل ذلك رأت الطين الأحمر وأعقاب السجائر لكنها لم تجد تفسيرًا ..

وقالت إن هناك أوهامًا ـ ربما ـ تترك آثارًا ملموسة ...

لكنها ـ هذه المرة ـ لن تصمت قبل أن تعرف الحقيقة ..

* * *

٧ ـ المصحة ..

سألها د.(صلاح) وهو ينتقى قرصًا يحوى موسيقا هادئة ، ويضعه فى جهاز الـ (هاى ـ فاى) :

ـ « هل الموسيقا تريحك نوعًا ؟ »

هزت رأسها فى حيرة .. وقالت :

ـ « لا أدرى .. لست ممن يهتمون بها عامة .. أعتقد أننى لا ألاحظها .. »

أغلق الباب ، وضغط زرًا فانبعثت النغمات الحالمة فى أرجاء العيادة ، وأغمض عينيه فى نشوة .. ثم سألها :

ـ « أظن أن المهندس (شريف) لا يعرف بوجودك هنا .. »

فى عصبية قالت :

ـ « ولا أريده أن يعرف .. حذار من أن يفلت لسانك حين تلقاه فى النادى هذا المساء .. »

ـ « ولمه ؟ إن العلاج النفسى من حق كل إنسان ..

مثله مثل الكشف الدورى على الأسنان .. إن النفس آلة معقدة ، وتروسها تتلف كثيرًا .. »

- « إلا هذا ! »

قالتها فى عصبية وأردفت :

- « فى بيئتى الأصلية يعالج الطبيب النفسى المجانين فقط .. »

ابتسم فأضاء وجهه الوسيم .. وقال :

- « نعم ولا بأس من أن ينال الطبيب النفسى جزءًا من هذا الجنون . فإن من عاشر القوم أربعين يومًا غدا منهم .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. وآسفة على وقاحتى .. »

- « حسن . لن أخبره . والآن ما هى المشكلة ؟ »

ابتلعت ريقها وراحت تعبث فى المطفأة الزجاجية التى على المكتب أمامه ، وراحت تحكى كل شىء .. كل شىء ..

* * *

قال لها بعد ما انتهت من قصتها الغريبة :

- « المشكلة - كما ترين - هى أنك عشت مع الأحلام أكثر من اللازم .. وقد أدى هذا لتآكل الحاجز

الفاصل بين الحلم والحقيقة بدأت أنت بعبور الحاجز إلى الحلم .. ثم بدأ الحلم يعبر الحاجز إليك هذا شىء طبيعى ومعتاد جدًا ..

« إن هناك مثالا شهيرًا لذلك فى فيلم (الأرنب روجرز) كان على بطل الفيلم أن يمثل دوره مع حشد من شخصيات الرسوم المتحركة ولهذا كان يقضى عشر ساعات يوميًا يتحدث إلى فراغ به مجموعة من الأسلاك .. ثم كان الفنيون يضيفون الرسوم المتحركة .. »

« بعد انتهاء تصوير الفيلم ظلّ شهورًا يشعر بأنه محاط بشخصيات الفيلم . وكان يتحدث إلى لا أحد ويضحك من نكات لا يسمعها سواه . وقد احتاج إلى علاج نفسى مكثف بعدها .. »

« نحن لا نقول هنا إنه جُنّ لكن الحاجز بين الحلم والحقيقة قد تهاوى وبدأت الضلالات تغزو عالمه .. »

قالت وهى تخفى وجهها فى كفيها :

- « كل هذا منطقى وجميل .. ولكن الأوهام لا تترك آثار رصاص فى الجدران ، ولا تلطخ الأرض بالدماء .. »

قال لها بكياسة :

- « ومن قال إنك لم تفعلى هذا فى أثناء غيبوبة (الإيوفوريا) ؟ من الممكن دومًا أن ترشى دماء دجاجة على الجدران .. وتطلقى بعض رصاصات من مسدس (شريف) على الحائط .. »

- « وعقب السيجارة ؟ »

- « يا سلام ! هذا أسهل جزء ممكن .. »

ثم عقد كفيه تحت ذقنه .. وسألها :

- « ماذا قال (شريف) عندما عاد ليجد ما حدث فى حجرة النوم ؟ وماذا قلتِ له ؟ »

قالت متنهدة :

- « كما لك أن تتوقع .. نظر لى فى ذعر .. ثم أعلن أن تجارب (دى - جى - ٢) قد أصابتنى بالخبال التام .. وغادر المنزل غير قادر على إضافة حرف .. »

وابتسمت متسائلة فى خبث :

- « بالتأكيد زارك طالبًا رأيك .. أليس كذلك ؟ »

زاغ من عينيها - بمعنى أن بلى - وقال متهربًا :

- « لا تتوقعى إجابات واضحة من طبيب نفسى ..

مثله مثل قسّ الاعتراف .. قد يملك أسرار الزوج والزوجة والابن .. لكنه يظلّ على صمته كالقبر .. »

- « لكنى ظفرت بإجابتى حقًا ! »

قال لها بعد صمت طال :

- « أرى أن نخبر (شريف) بكل شىء .. إن (شريف) سيفهم .. فالخطأ خطؤه هو .. ثم سأدخلك المصحة التى أملكها فى (الدقى) .. »

هبت صارخة محتجة :

- « مصحة ؟! هل وصلنا إلى هذا الحدّ ؟ »

لم ينهض بدوره .. وقال بذات البرود :

- « نعم وصلنا إلى هذا الحدّ .. لكنى أرجوك أن تغيرى رأيك عن الطب النفسى .. إن الإقامة فى فيلا أنيقة لها حديقة تزهو بالخضرة ، والحياة بلا هموم ولا أعباء ، هى كل ما أريده بهذا الطلب .. إن فنانين كثيرين يأتون للإقامة عندى بدعوى هذا العرض المترف : الإرهاق .. ولا أحد يسميهم مجانين .. »

- « وطفلتى ؟ »

- « ستكون بخير عند أمك أو أم (شريف) .. »

نظرت له متوسلة .. بضع دقائق صامتة ثم همست :

- « انك ستقتنع (شريف) . أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. بلى .. »

★ ★ ★

وراحت (عبير) تمضى وقتها ما بين الجلوس فى الشرفة المشمسة تتأمل الحديقة الغناء فى شمس الخريف أو مشاهدة التلفزيون ومكتبة (الفيديو) المنتقاة بعناية بحيث تخلو من كل ما يثير الخيال من أى نوع ..

أحياناً تلعب الشطرنج مع مدام (حفيظة) العجوز الشمطاء التى وهن سمعها ، فأصابها جنون الاضطهاد ككل العجائز حين يضعف سمعهن ، ويعتقدن أن كل كلام الآخرين سخرية أو ذم فيهن .

كانت مدام (حفيظة) أرستقراطية ثرية .. وهذا طبيعى لأن أحداً لا يمكنه دفع الفواتير الفلكية لهذه المصحة سوى (قارون) ذاته ..

وبرغم المجاملات الكثيرة فى الحساب ؛ إلا أن (عبير) كانت تتمزق حزناً لدى التفكير فى الجنيهات التى تتسرب من (شريف) فى كل ثانية .. وكان (شريف) يقول لها كلما زارها حاملاً الزهور :

- « لا عليك يا (عبير) . المهم أن تشعرى بصفاء تام .. هذه هى مزية الزواج من رجل ثرى .. »

فتنظر له بامتنان .. وتقول :

- « لا حرمنى الله منك .. وكيف حال (شذى) ؟ »

- « لقد بدأ شعرها ينمو أخيرًا .. ويبدو أنها ورثت جمالك وذكاءك معًا ! »

- « يا للكارثة ! »

- « إن أمى تقول إن الحياة بدونها مستحيلة . المشكلة بالنسبة لى هى توفير اللبن الصناعى لها فهذا النوع شحيح فى الصيدليات »

وهنا تقول مدام (حفيظة) بلهجة لا تقبل النقاش :

- « يجب ألا ترضع (عبير) طفلتها أبدًا .. فهى - (عبير) - ضعيفة واهنة .. والرضاعة ستقتلها حتمًا ! »

- « أمرك يا مدام .. »

وهكذا تمرّ الأيام ..

ويبدو أن هذا العلاج ناجع بالفعل . لأن أحدًا لم يزر (عبير) طيلة هذه الفترة ..

كم مرّ عليها فى المصحة ؟ يبدو أنها قضت ثلاثة
أسابيع . وكانت على وشك الخروج .. عندما .....

* * *

جلس (شريف) أمام جهاز الكمبيوتر يداعب
الأزرار ، باحثًا عن شيء ما ..

الحق أن ابتعاد (عبير) والطفلة قد منحاه وقتًا
هادئًا لا بأس به ، وجعله يتفرغ لعمله أكثر فأكثر ..
لكنه ـ منطلقًا من ضمير حيّ ـ لم يجرؤ قط على
الاعتراف لنفسه بذلك ..

والحقيقة أن (شريف) ليس قاسيًا .. بل هذه هي
طبيعة الرجال جميعًا .. فالرجل يضع أولوية مطلقة
لعمله .. أما الأنثى فتضع أولوية مطلقة لأسرتها ..

ثم إن الرجل لا يحبّ أطفاله فى البداية .. لا بد من
أن يباشرهم وأن يعتادهم ، ومن ثم يحبهم ..

أما المرأة فهى تشعر بأن الأطفال قطعة من روحها
من لحظة ولادتهم .. لذا تهيم بهم حبًا بعد ثلاث
دقائق من إنجابهم ..

كان (شريف) جالسًا فى هذه الساعة المتأخرة
أمام شاشة الكمبيوتر ، يحاول إيجاد مساحة كافية من

الذاكرة العشوائية تتسع لبرنامج جديد يعتمد على
الرسوم .. هنا وجد رسالة خاصة به وصلته بالبريد
الإلكترونى .. فحرك (الفأرة) طالبًا فتحها لقراءتها ..

كان ما وجده غريبًا .. بل ورهيبًا ..

وأحس بالشعر يتصلب على ساعديه ..

* * *

٨- الفرار .. الفرار !

في الشرفة تجلس (عبير) ترمق الحديقة المظلمة التى بدأ شىء من البرد يتسلل إليها .. برد جميل حزين له نفس إيقاع لفظة (شجن) ..

لكنها ارتجفت حقًا حين رأت الشكل المسربل بالسواد الذى يمشي في الحديقة متقدمًا منها . كان يرتدى السواد .. وخطر لها أن كل أعدائها تقريبًا يرتدون ثيابًا سوداء . إذن هو عدوها ..

همت بالصراخ .. ووثبت في وضع دفاعى ممسكة بسكين الفاكهة ..

لكنها سمعت صوت زنبرك القلم المميز (تك تك تك !) .. وميزت صوت (المرشد) الرصين البارد نوعًا ..

- « مساء الخير يا فتاة .. دعى هذه المدية .. »

ألقت بالمدية أرضًا .. ولهثت .. تلفتت حولها لتتأكد من أنها وحيدة . ثم قالت شاعرة بحماقتها :

- « (مرشد) .. أنت وهم .. وأرجو ألا تكون نسيت هذا .. »

- « أنا وهم في دنيا الواقع .. لكنى واقع في دنيا الأوهام .. تك تك ! لا أدرى كيف أشرح هذا .. »

- « إذن أنت وهم ! »

- « بل أنا واقع . لأنك تعيشين مغامرة أخرى في (فانتازيا) . هل نسيت ؟ لقد جاء الوقت كى أصطحبك ! »

هتفت في غضب وهى تتراجع للوراء :

- « مرة أخرى ؟ لماذا تصر على أن هذا ليس هو واقعى ؟ أنا (عبير) الزوجة والأم . صحيح أننى أحلم أحيانًا لكن هناك واقعًا أنطلق منه في كل مرة .. »

قال بلا مبالاة :

- « معلوماتى الوحيدة هى أنك تمرين بحلم آخر من أحلام (فانتازيا) .. حلم اسمه (تجربة الولادة - مواجهة الأحلام السابقة) .. وسينتهى هذا الحلم كأى حلم آخر ، لنذهب إلى قصة أخرى . هذا هو كل شىء .. »

- « هذا كذب !! »

قالتها ورفعت ساقها لتركله فى قصبة ساقه ركلة عاتية .. صرخ ألمًا .. وراح يتواثب كاللقلق على ساق واحدة ..

وأخيرًا استطاع الكلام .. فقال لها :

- « أوووه ! أنت تزدادين شراسة يومًا بعد يوم .. »

- وأنت تزداد حمقًا .. تريد القول إننى لم أنجب (شذى) ؟

- « نعم .. إن الحمل والولادة جزءان من المغامرة التى أعدّها لك (دى - جى - ٢) .. فقد جرّبت أشياء كثيرة فى (فانتازيا) سواهما .. وخطر له أنه من الممتع أن ..... »

- « أحمق !! »

وركلت ساقه السليمة ، فتدحرج على الأرض متأوهًا ..

- « آى ى ! كفى ! إنهم لن يدفعوا لك أجرًا على تحويلى إلى عاجز .. استعدى للرحيل الآن .. »

- « هذا لن يكون .. إن هذا عالمى الأصلى ! »

قال لها وهو يرتكز على ركبتيه :

- « إذن جربى .. لو استطعت الرحيل معى فمعنى هذا أنك تعيشين فى حلم آخر من (فنتازيا) .. »

سألته وهى تستجمع أنفاسها :

- « حسن .. لنفترض أنك صادق - ولو على سبيل الجدل - فلماذا جئت مبكرًا لى هذه المرة ؟ إن ذروة الحلم لم تأتِ بعد .. »

- « لأن هذا الحلم خطير .. وليس مستحبًا أن نستمر فيه أكثر من هذا .. »

- « وكيف نرحل وقد زال برنامج (دى - جى - ٢) من الوجود ؟ »

ابتسم فى ثقة .. وقال :

- « إن البرنامج لم يزل فى عالم الواقع .. أنت - فقط - فى حلم ليس فيه هذا البرنامج .. أؤكد لك أن (دى - جى - ٢) يعمل بكفاءة تامة فى هذه اللحظة .. ولولاه ما كنا هنا أنت وأنا .. »

- « (مرشد) .. أنت توشك على إنهاء عقلى .. »

- « الأمر ليس بهذا التعقيد .. امشى معى بضع خطوات ولسوف تجدين قطار (فانتازيا) ينتظرنا خارج المصحة .. »

نهضت متخاذلة .. ساقاها لينتان كعودى مكرونة .. الدوار يكاد يفتك برأسها المسكين لكنها تقاوم .. وتقول :

وفى اللحظة التالية كان الخفير يمسك بمعصمها بيد من حديد .. ويقتادها إلى داخل الفيلا ..

ـ « سأطيعك .. فقط لأثبت لنفسى أنك وهم .. »

ـ « هذه فتاتى الطيبة .. »

ونزلت بضع درجات تقودها نحو الحديقة .. الحديقة الصامتة الغافية فى الظلام ، ما عدا مصباحًا أو اثنين يرسلان ضوءًا ناعسًا شاحبًا .. وراحت تنقل خطاها عبر الممر ..

وسمعت من يناديها فى توتر :

ـ « إلى أين يا مدام ؟ »

لم ترد .. وواصلت سيرها نحو البوّابة ..

ـ « توقفى يا مدام ! »

وفى اللحظة التالية كان الخفير يمسك بمعصمها بيد من حديد .. ويقتادها إلى داخل الفيلا صائحًا :

ـ « إلى أين يا مدام ؟ هل تريدين الفرار وخراب بيتى ؟ إن د. (صلاح) أمرنا بعدم خروجك إلا بإذنه .. »

ـ « دعنى يا أحمق .. أريد أن ابرهن على أن هذا عالمى ! »

ضرب كفًا بكف .. واستغفر الله وحوقل .. وقال :

ـ « عالمى عالمك .. لا يهم .. المهم أنك (عُهدة) ..

وأن خراب بيتى مرهون بخروجك من هذه البوابة .. »

قالت وعيناها تلتمعان بشكل مرعب :

ـ « سأثبت له أنه لا يوجد قطار خارج البوابة ! »

ـ « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم ! ومن ـ الأحمق ـ الذى قال إن هناك قطارًا خارج البوابة ؟! قطار فى (الدقى) ؟ هل سمع أحد بشىء كهذا ؟ »

طال الصراع والجدال ، لكن كل شىء انتهى سريعًا ..

* * *

كانت الرسالة التى قرأها (شريف) على الشاشة تقول :

ـ « أيها (الجوّال) .. »

« لا نعرف الاسم الذى اخترته لنفسك فى هذا العالم .. لكننا جميعًا آثرنا اسم (الجوّال) .. »

« إن بعضنا يحمل لك ضغائن لا يمكن تجاهلها أو نسيانها ، وفى كل محاولاتنا للسيطرة كنت أنت العقبة التى منعتنا من ازدراد الكون ـ الأرض ـ البلاد .. »

« لهذا نحن راغبون فى تسوية .. وقد اخترنا لها الأسلوب الجديد بالرجال : لقاء فى مكان منعزل لإنهاء الأمر كما يفعل الرجال .. »

« نحن نعلم أنك لن تقبل .. لكنك فى الساعات التالية ستتلقى عرضًا لا يمكن رفضه ، ولتجدن نفسك مرغمًا على القبول .. لأن الأمر يتعلق بحياة أنثى يهمك أمرها .. »

« عندما تقبل ـ ونحن نعرف أنك ستقبل ـ اترك ردك فى العنوان التالى من البريد الإلكترونى ، وذكر العنوان .. »

ثم التوقيع : « خصومك الدائمون »

انتهى (شريف) من قراءة هذا الكلام الفارغ ، وأحسَّ بقلق غريب .. إن التهديد واضح لا مراء فيه .. لكن من كتبه ؟

لا أحد يدخل هذه الغرفة سوى (عبير) .. لا أحد يعلم رقم هاتفه وبريده الإلكترونى سوى بعض شركات جادّة فى الخارج ، لا يمكن أن تعبث هذا العبث ..

(عبير) لا تعرف ما هو البريد الإلكترونى .. بل هى تعرف كيفية فتح هذا الجهاز بصعوبة .. فكيف تترك رسالة كاملة ؟

ثم ما معنى هذا الهراء المكتوب ؟

إن (شريف) ليس له أعداء ، اللهم إلا مطلقته السابقة ، وهى ليست من الطراز الذى يترك تهديدات .

بشكل ما ، يشعر أن هذا المكتوب على الشاشة جزء من كل السخف والأشياء غير المعقولة التى اجتاحت عالمه ، منذ سمحت (عبير) لسبّاك يدخن (بنسون أند هدجز) بأن يدخل الشقة بحذاء ملوث بطين أحمر ..

« أنثى يهمك أمرها .. »

لا توجد سوى ثلاث إناث يهمه أمرهن .. هن (عبير) و(شذى) وأمه فمن المقصودة ؟

بشكل ما أدرك أن الأمر يتعلق بـ (شذى) .. هذا منطقى فالأوغاد يهددون بقتل الأطفال دومًا .. هذه هى التقاليد ..

(شذى) الآن نائمة مع أمه فى دارها بـ (الدقى) .

إنه ليشعر بحيرة بالغة لا بأس من أن يتأكد

مدّ يده إلى سماعة الهاتف وطلب رقمًا .....

* * *

لم تجد (عبير) صعوبة فى تعرف أولئك الذين غرسوا رماحهم فى صدر الخفير ، فدار حول نفسه

نصف دورة ثم سقط فى بركة من الدم .. إنها تلك اللحية المجدولة . وغطاء الرأس والدرع الغريب .. لقد رأت ذات المشهد مرارًا فى (قادش) ، حين خاضت موقعة (قادش) مع (رعمسيس الثانى) .

إنهم ـ ببساطة شديدة ـ الحيثيون .. عشرة منهم على وجه الدقة ..

كيف جاء الحيثيون إلى (الدقى) فى نهاية القرن العشرين ؟ هذا سؤال لا يهمّ ، ولا تجدى إجابته .

لقد صارت الغرائب أكثر من اللازم فى هذا العصر ..

وتحاشت (عبير) رمحًا اتجه إلى عنقها ، ثم راحت تركض فى الحديقة بينما الرعاة الآسيويون لا يكفون عن الصراخ ، ويرددون كلمات بلغتهم الغريبة التى لم تفهمها قط ..

وثبت فوق حوض نباتات . تعثرت .. وثبت فوق جثة أحد الكلبين اللذين كانا يحرسان حديقة المصحة ليلاً ..

أخيرًا .. السور الحديدى ..

راحت تتسلقه .. ولم تنظر للوراء ..

هى تعرف أنهم دانون .. تعرف أنهم يصوبون رماحهم إلى ظهرها .. تعرف أنها هدف سهل ..

لكن هذا لا يهم ..

إنهم أوهام .. كل هذا وهم .. لكنها راغبة حقًا فى الفرار منه ..

وأخيرًا وثبت إلى الشارع المظلم إلا من مصابيح خافتة .. وبضع سيارات غافية اكتست بطبقة من أوراق الخريف ..

راحت تركض كالمجنونة دون أن تنظر للوراء ..

الحيثيون قد هاجموا المصحة وقتلوا الخفير ..

يا للغرابة ! يا للجنون !

ولو عاشت لتقابل د. (صلاح) لاتهمها بأنها قتلت الخفير فى لحظة جنون .. لماذا ؟ لأن الحيثيين لا يهاجمون المصحات ليلاً ليقتلوا الناس .. هذه طبائع الأشياء أيتها البلهاء ..

كانت تركض لاهثة حين شعرت بأن سيارة تلاحقها .. ورأت ظلها يطول على الأرض .. يطول .. ثم يقصر تدريجيًا .. عندها نظرت جوارها ، فرأته خلف عجلة قيادة السيارة المكشوفة ..

كان يدخن لفافة تبغه الشهيرة .. ويقول لها وهو يبتسم :

- « (ناتاليا أولجانوفا) .. هلا ركبت بحق السماء ؟ إن قدميك لم تخلقا لكل هذا الركض .. »

قالت وهى تثب لتجلس جواره :

- « (بوند) ! ألا تنام أبدًا ؟ »

- « إن هذا لحسن حظك .. »

وضغط دواسة البنزين فاندفعت السيارة فى شوارع (الدقى) بسرعة مائة وعشرين كيلومترًا فى الساعة ..

صرخت وهى تتشبث بمقعدها :

- « تمهّل .. نحن فى وسط العمران ! »

- « (بوند) لا يعرف سرعة أقل من الثمانين فى الساعة .. »

وبرزت سيارة عرضية ، فضغط فرملته ، التى أصدرت نواحًا مجنونًا ، ودارت السيارة مائة وثمانين درجة حول محورها .. ثم واصل الهرب فى اتجاه عكسى تمامًا ..

سألته (عبير) :

- « ممن تهرب ؟ إن الحيثيين لا يملكون سيارات .. »

قال وهو يلقى بلفافة تبغه :

- « من الجميع . من خيول الحيثيين وإخوان الدم ..

ومن مكوكات (زولتار) ووطاويط (دراكيولا) .. إن الجميع قد خرج للفوز بك يا فتاة .. ويبدو أن شعبيتك تزداد حقًا ! »

ثم أردف في صبر :

- « ألم يأتك (المرشد) المخبول بعد ؟ لماذا لم تفرّى معه ؟ »

- « لم يعطونى الفرصة لذلك .. »

ثم فى تحدٍ أردفت :

- « هذا هو عالمى الأصلى .. ولن أترك أحدًا يطردنى منه .. »

- « مسألة نسبية .. على كل حال أنصحك بالحذر .. فالأمور لم تعد كما كانت فيما يتعلق بالخيال والواقع .. »

فجأة هتفت (عبير) وقد تذكرت شيئًا ..

- « (بوند) . هل تذكر السيارة التى كدت تصطدم بها فى أثناء فرارنا ؟ إنها سيارة (شريف) ! »

* * *

٩- (شريف) وأوقات سيئة ..

الأوهام قد تقتل ..

* * *

فى ذلك الوقت كان (شريف) يمر بأسود لحظاته طُرًّا ..

كان قد اتصل بأمه ليطمئن على أن الأمور على ما يرام . وكان ما سمعه في الهاتف بليغًا جدًا : صوت رنين الهاتف ولا شيء ..

وهكذا كان عليه أن يرتدى ثيابه والقلق يعتصره ، ثم يهرع إلى جراج البناية ليخرج سيارته . بالطبع كانت محشورة بين أربعين سيارة بحيث يحتاج الامر إلى ساحر لا سائق بارع كي يخرجها من مكانها

وصحا البواب (حمدان) ليعاونه فى شق ثغرة وسط علبة السردين هذه ، وكان يسعل ويبصق مؤكدًا دهشته من هذا الشاب الرقيع ، المتحمس للهو فى هذه الساعة المتأخرة . فبالنسبة لـ (حمدان) كان (شريف)

رقيقًا بالتأكيد . فهو وسيم أولاً .. ثم هو بدون شارب وهذا أخطر اتهام لرجولته فى غرف (حمدان) ..

وأين يذهب شاب رقيع فى وقت كهذا إن لم يكن بحثًا عن مزيد من الرقاعة ؟!

لم يكن (شريف) فى حالة نفسية تسمح له بالاحتجاج على رأى البواب السرى فيه .

إذ سرعان ما انطلق ينهب الطرقات قاصدًا بيت أمه فى (الدقى) ..

وصعد فى الدرج مسرعًا ليوسع الباب ركلاً ولكمًا .. فى النهاية تذكر أن المفتاح معه .. مدّ يده وأولجه فى القفل ..

ولحسن الحظ لم يكن المزلاج مغلقًا ..

★ ★ ★

كانت الردهة الملأى بالتحف هادئة كالعادة ..

وفى الضوء الخافت لم يكن بوسعك أن تتبين شيئًا ..

لكن رائحة (الأسيتون) ـ منظف الأظفار ـ كانت تملأ المكان وتزكم أنفه .. وبعبارة أخرى كانت رائحة أحد المذيبات العضوية .. وكان (شريف) من سعة

الخيال بحيث يعرف أن هذا المذيب لن يكون سوى (الكلوروفورم) .. فأمه لن تنثر (الأسيتون) على البساط ما لم تكن قد جُنَت ..

ومعنى هذا أن .. آه ! بالضبط كما توقّع ..

هو ذا الخادم النوبى العجوز مكومًا على البساط .. وهى ذى المربية الفلبينية التى جلبتها أمه للطفلة مغشيًا عليها على الأريكة ..

ثم هى ذى أمه ـ (نسل شاه هانم) ـ ساقطة قرب الدرج الذى يقود إلى غرفة الطفلة ..

الأوغاد ! هرع لأمه وجسّ نبضها .. كانت حيّة تمامًا .. لكن هناك من قام بتخديرها وتخدير الخدم .. لماذا ؟ ليخطف الطفلة طبعًا ..

فى نصف الساعة التالى بذل مجهودًا عنيفًا كى يحمل كل هذه الأجساد ويريحها على الأرائك .. ثم يغسل وجوههم بالماء البارد مع بعض الصفعات للخدم ..

وكان تأثير كل هذا فعالاً ..

فتحت الأم عينيها الزرقاوين أخيرًا ، وصرخت فى هلع :

ـ « (شذى) ! مون ديو (رباه بالفرنسية) ! لقد خطفها المجرمون .. لقد خدرونا .. »

ـ « من هم يا أماه ؟ »

بدا كأنما تسترجع ذكرى تبخرت .. وأخيرًا قالت بعد لأى :

ـ « لا أدرى .. كانوا مخابيل .. حقًا مخابيل يرتدون مثل أبطال الروايات .. »

ـ « كل أبطال الروايات يرتدون ثيابًا يا أماه .. »

ـ « ماى نو . كانوا يرتدون ثياب أبطال تلك الروايات .. الروايات السخيفة التى تحوى كواكب ومكوكات فضاء و .... ! »

★ ★ ★

من جديد تنطلق سيارة (شريف) فى الشوارع ..

إن المصحة على بعد شارعين .. و(عبير) هناك ..

عليه أن يتأكد . لربما اذى الأوغاد أنثى أخرى من أسرته ..

ثم إنه يشعر أن لـ (عبير) دورًا ما فى كل هذا ..

وكان يعبر أحد التقاطعات شارد الذهن ، حين فوجئ بالكارثة قادمة لا راد لها .. سيارة ساطعة

الأنوار تندفع نحوه بسرعة جهنمية كالكابوس وبشكل لا يمكن تفاديه ..

لكن سائق السيارة كان يقظًا . وسرعان ما إىىىىىى ! دوت الفرملة الصارخة التى جعلت السيارة تدور دورة كاملة حول محورها .. وأمكنه ـ حين ابتعد النور عن عينيه ـ أن يرى السائق . إنه رجل متأنق يرتدى سترة السهرة ويضع قرنفلة فى عروتها . وجواره فتاة ممتقعة شاحبة كالبورص ..

كانت سيارة مكشوفة رياضية من طراز شبابى جدًا ، ولم يستطع تمييز طرازها ، لأنها ابتعدت بسرعة البرق ..

لكنه لم يعجز عن تمييز ملامح الفتاة الشاحبة .
لو أردنا الدقة لقلنا إنها تشبه (عبير) إلى حد كبير .

لكن ماذا تفعله (عبير) فى سيارة رياضية ومع شاب متأنق ؟

ـ « يخلق من الشبه أربعين .. »

قالها وواصل قيادة سيارته نحو المصحة ..

★ ★ ★

وكان ما رآه في المصحة مرعبًا ..

لقد احتاج إلى أن يقرع الجرس ست مرات ، ثم اضطر إلى أن يجتاز الباب الحديدى المفتوح ، لأنه لم ير ما يدلّ على وجود حياة آدمية فى المكان بأكمله ..

فى البدء تعثر ـ كالعادة ـ فى جثة الكلب إياها .. ثم فى جثة الخفير .. ثم فى جثة مريض أو مريضين ..

وكان من السهل أن تعرف أن هذه الجثث تم تمزيقها برمح حاد أو أداة تشبه الرمح ..

كان المشهد مريعًا .. وقد احتاج (شريف) ـ الذى لم ير جثة فى حياته ـ إلى بضع دقائق كى يخرج من حالة البله التى حلت به . وأن يصدّق أن كل هذا حقيقى ..

كان (شريف) قد اعتاد ـ كلما رأى مشهدًا لا يُصدّق ـ أن يراه ذا بعدين اثنين لا ثلاثة .. كما يحدث فى السينما .. وكأنه يرى فيلمًا سينمائيًا ملونًا لا حظ له من الحقيقة ..

لقد زار شلالات (نياجرا) منذ أعوام .. ولم يستطع تصديق أنه حقا هناك أمام هذا المشهد المهيب ، لذا تكفل عقله الباطن بحلّ المشكلة بطريقة بسيطة :

جعله يرى المشهد دون بعد ثالث .. دون تجسيم ..

كأنها مجرّد صورة عملاقة من التى كان يراها مئات المرات ..

هذا الشعور يتكرّر الآن ..

لهذا لم يكن الذعر هو ما اجتاح عقل (شريف) الآن .. بل الدهشة .. وفى ذهنه راح سؤال مقلق يتردّد :

ـ « (عبير) ليست هنا . إذن أين هى ؟ أين هى ؟ »

وجاءته الإجابة من مركز الذاكرة .. وكان واضحًا جليًا ما سمعه :

ـ « (عبير) فى السيارة التى كادت تصطدم بك ! »

* * *

١٠ـ المواجهة : الاستعدادات ..

سيارة (شريف) تنهب الشوارع بحثًا عن (عبير) .. أين ذهبت ؟ هل اختطفها أحد ؟ بالتأكيد هذا هو التفسير الوحيد .. اختطفها من صنع هذه المذبحة فى المصحة ..

ولكن من هو ؟ وماذا يريد ؟

لم يكن (شريف) ممن يستعملون القوة ، ولم يكن يتصور نفسه (يطلق الرصاص ثم يتلوى كالثعبان متواريًا وراء جدار) .. لكنه ـ على كل حال ـ كان يضع مسدسه فى (تابلوه) السيارة .. وكان على أتم استعداد لإطلاق طلقة أو طلقتين قبل أن يقبض عليه ..

وبالفعل لم يطل بحثه طويلاً ..

رأى السيارة إياها قادمة فى الاتجاه العكسى نحوه ، وأضواؤها ساطعة كنصال مشرعة تحجب الرؤية عن عينيه . فزاد إضاءة كشافاته تلقائيًا .. وأوقف سيارته وأخذ السلاح من (التابلوه) ..

وبقدمين من (الجيللى) غادرها ، ومشى بضع خطوات تجاه السيارة الأخرى ، التى وقفت كوحش شرير مضىء العينين يهدر دون انقطاع ..

واستطاع ـ حين خرج من مجال المصباح ـ أن يرى (عبير) جوار السائق ، الذى كان هو ذات الشاب الوسيم بسترة السهرة السوداء ..

ـ « (عبير) ! »

قالها بصوت مرتجف ، ورفع المسدس ..

لكن الآخر لم يبد مهتمًا . أشعل لفافة تبغ بقداحة ذهبية ، وظلّ جالسًا باسترخاء فى مقعده ..

أما (عبير) فوثبت من السيارة دون أن تفتح الباب ، وهرعت كى ترتمى فى أحضان (شريف) ، وبدأت تتهنه ..

قال لها وعيناه لا تفارقان السيارة الأخرى :

ـ « من هو ؟ صديق ؟ »

ـ « نعم .. إنه صديق .. الصديق الوحيد لى الآن .. تعال أقدمك له .. »

وكان الأخ إياه جالسًا بنفس الثبات ، مع مسحة (غلاثة) لا تبعث الحبّ فى النفس .

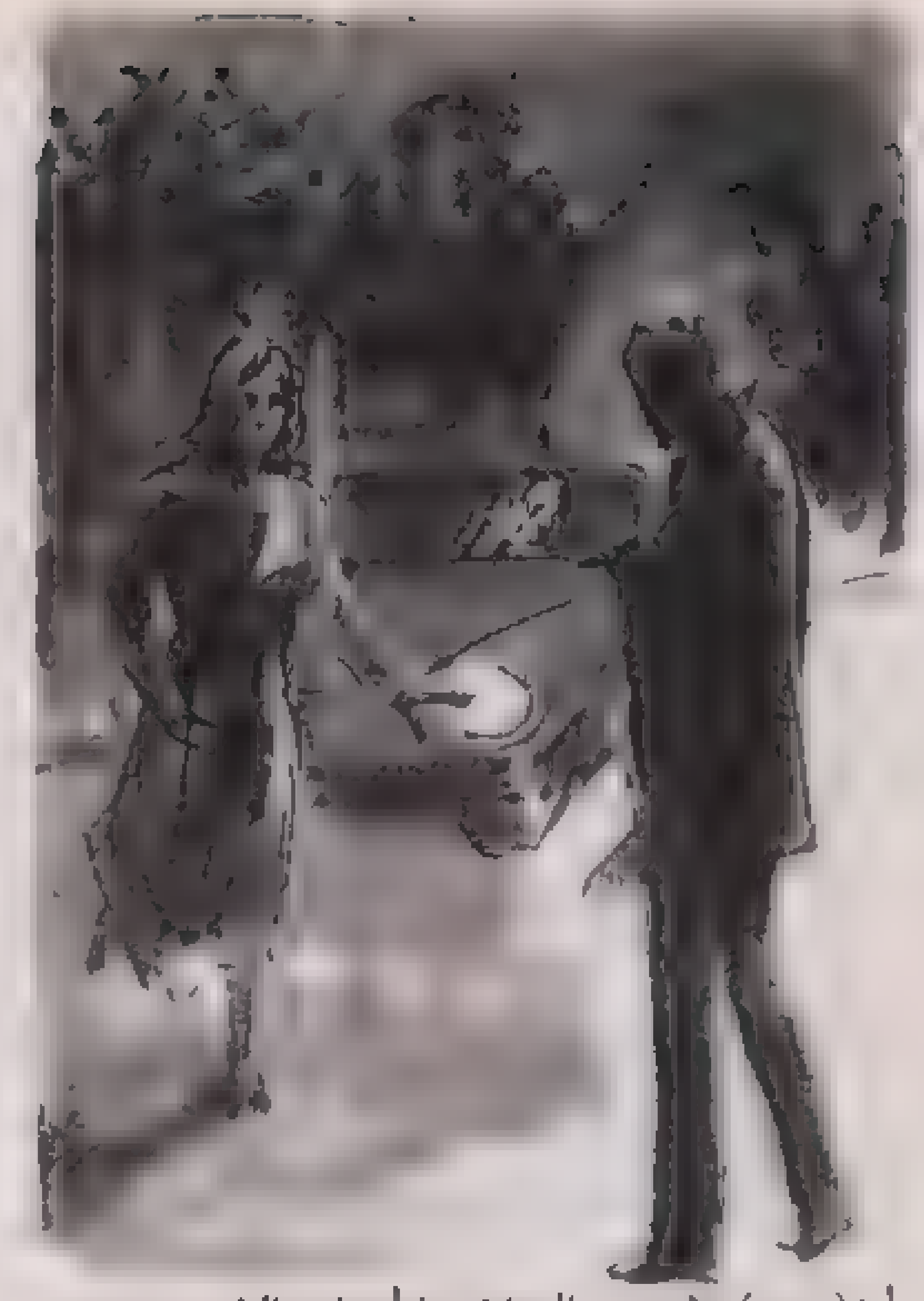

أما (عبير) فوثبت من السيارة دون أن تفتح الباب ، وهرعت كى ترتمى فى أحضان (شريف) ..

وحيا (شريف) بهزّ رأسه .. على حين قالت (عبير) :

ـ « أقدم لك مستر (بوند) . (جيمس بوند) ! »

ـ « إذن أنا (ميكى ماوس) .. »

ـ « أنا لا أمزح يا (شريف) .. »

وقال (بوند) مبتسمًا بنفس السماجة ، وبإنجليزية راقية جدًا :

ـ « مساء الخير . لا بد أنك (الجوّال) .. أرجو أن تعيد هذا السلاح إلى جيبك .. فلا يبدو لى أنك ممن يتعاملون معه بارتياح .. »

ـ « ما هذا الهراء ؟! »

قالها (شريف) محتجًا .. وتراجع للوراء ..

الحقيقة ـ التى لم يجرؤ على الاعتراف بها ـ هى أن هذا الرجل يشبه (جيمس بوند) بشدة ، كما جسّده (شين كونرى) ببراعة فى سلسلة أفلامه الشهيرة ، بل وطريقة النطق ! حتى حرف (السين) الذى يمزجه مزجًا بحرف (الشين) .. و .. كل شىء ..

قالت (عبير) للرجل :

ـ « أرجو ان تتصرف الآن .. أنا بأمان الآن مع (شريف) .. سأشرح له كل شىء .. »

ـ « ليكن .. عمت مساء .. »

وعوت عجلات السيارة مع الفرملة العنيفة التى أطلقها .. وبعد ثانية كان يسابق الريح فى الشوارع بسرعة لا يمكن تصورها ..

سألها (شريف) وهو يرمق السيارة المبتعدة :

ـ « من هذا المخبول حقًا ؟ »

ـ « قلت لك إنه (جيمس بوند) .. »

ـ « أنت جننت تمامًا .. »

ـ « ربما . لكنه الجنون الوحيد الذى يرى فيه المحيطون بالمجنون نفس ما يراه هو ! »

وحكت له كل شىء . وحكى لها كل شىء .. طبعًا لم يصدق حرفًا من كلامها . وعلى كل حال لم تكن فى حاجة لذلك ، لأن خبر اختفاء (شذى) أطار برجين أو ثلاثة من مخها ..

صرخت فى جنون وهى تجذبه من تلابيبه :

ـ « الأوغد ! أنت لا تعرفهم .. إنهم سيقتلونها ! »

ـ « أعتقد أن الشرطة تعرف كيف ...... »

ـ « شرطة ؟! تذهب إلى الشرطة لتحكى لهم قصة لطيفة ، عن غزاة الفضاء ورعاة البقر ، الذين اختطفوا ابنتك ؟! صدقنى يا (شريف) .. أنا أعرف ما اتكلم عنه . لا أحد يستطيع إنقاذ (شذى) سوانا »

ـ « ولكن كيف ؟ »

ـ « لنركب سيارتك ونعد إلى الدار أولا . »

★ ★ ★

فرغت (عبير) من قراءة الرسالة التى أرسلوها لها على البريد الإلكترونى ، ثم ابتلعت ريقها . وقالت .

ـ « هكذا يتضح الأمر إن (شذى) هى الطعم الذى سيجذبوننا به جميعًا إلى الشرك »

ـ « ومن هم ؟ »

ـ « إنهم كل أشرار (فانتازيا) الذين قابلتهم حتى الآن .. »

ـ « كفى عن هذا الهراء ! »

نظرت له فى جدية ، وقالت :

ـ « اصغ لى يا (شريف) .. لقد تهدمت ـ لسبب ما ـ كل حواجز المنطق ، وغدت علاقة الواقع بالخيال علاقة مبهمة غامضة .. إن (فانتازيا) معنا هنا فى عالمنا .. وعلينا أن نواجهها .. »

- « أشعر بأننى مجنون لو تحملت جنونك هذا .. »

- « ربما . لكن لا سبيل أمامك سوى أن تصدقنى .. لا تحاول خداعى أو الاتصال بـ د. (صلاح) .. إن أمامنا وقت كاف لاستعادة الطفلة قبل أن يأتوا ليفهموا منا ما جرى فى المصحة .. »

وأرجعت رأسها للوراء مفكرة .. وقالت :

- « حدد لهم مكان اللقاء فجرًا .. على سطح هذه البناية .. »

- « هل جننت ؟ »

لم ترد وأكملت بنفس اللهجة العملية :

- « قل لهم إنك تريد أن ترى الطفلة قبل أن تفعل أى شىء .. »

راح (شريف) يطبع الرسالة التى كلفته بها ، ثم حرك (الفأرة) كى يرسلها ..

وغمغم وهو يتأمل الشاشة :

- « ألديهم جهاز كومبيوتر ؟ إنهم متطورون .. »

قالت (عبير) :

- « بالطبع .. ولا بد أن عليه نسخة من (دى - جى - ٢) .. فهم يستمدون وجودهم منه .. والآن هيا بنا .. إن لديك عملاً كثيرًا لهذه الليلة .. »

- « أى عمل ؟ »

- « ستجد لنا نسخة من (دى - جى - ٢) وتعدلها .. »

* * *

راحت (عبير) تناوله قرصا مرنا تلو الآخر من علب الأقراص التى لديه .. والواقع أن عددها كان يفوق المائة قرص ..

على حين راح (شريف) يستعرض محتويات كل قرص . بعضها كان فاسدًا لا يعمل وبعضها كان يحوى كلامًا فارغًا . بعض المهملات أو العناوين التى لا تدلّ على شىء ..

كان (شريف) يسمى ملفاته بأسماء غريبة لا معنى لها على غرار XYZ و Tozz و ABC . وكان من المستحيل عليه تذكر ما يحويه كل ملف . لذا كان مرغمًا على فتحه ليرى ما به .. الأمر الذى لم يوفر الوقت قط ..

قالت (عبير) فى غلّ :

- « يا لك من أحمق ! حتى أنا التى لا تفقه شيئًا فى الكمبيوتر أعرف أن اسم الملف يجب أن

بوحى بمحتواه   أعتقد أننى قابلت عشرة برامج تحمل اسم Tozz .. »

قال فى خجل :

ـ « اى (طز)   إنها تعلن مللى الشديد من برنامج ما .. »

ناولته قرصًا آخر   وقالت وهى تجلس القرفصاء على الأرض :

ـ « أنا الآن أعرف أن أحدهم تسلل إلى الحجرة ونحن نيام فى ذلك اليوم ، وأزال البرنامج بعد ما أخذ منه نسخة لنفسه   إنهم يعرفون أهمية البرنامج . وأملنا الوحيد هو استعادته .. »

واصل استعراض الملفات فى تعاسة . وفجأة التمعت عيناه ، وهتف وهو يقف :

ـ « (دى ـ حى ـ صفر) ! ها هو ذا الجد القريب للبرنامج ! حمدًا لله .. »

صرخت بنفس الحماس :

ـ « أخيرًا . انسخه قبل أن يحدث شىء ما .. »

مد يده يداعب الأزرار   وسرعان ما استطاع أن يصنع ثلاث نسخ من البرنامج العتيق المنسى .

ـ « وماذا بعد ؟ »

قالت (عبير) فى هدوء وهى تجمع الأقراص من على (الموكيت) :

ـ « سنجرى بعض التعديلات المهمة على هذا البرنامج .. »

ـ « ليكن . ولكنى بحاجة لقدح من القهوة المركزة .. »

ونظر إلى ساعة الحائط ..

كانت الواحدة بعد منتصف الليل ..

* * *

راح يعمل كالمحموم ..

الإرهاق يغزو تفكيره ، وعقله يحتج مطالبا بحقه فى النعاس ..

لكن (شريف) لم يكن ممن يدللون عقولهم إلى هذا الحد .

إن عقله هو أملهما الوحيد فى هذا الصراع

* * *

١١ـ المواجهة : صراع الأفكار ..

وانقطع التيار الكهربى فى الرابعة صباحًا !

صرخ (شريف) فى جنون حين ساد اللون الأسود المخملى كل شـىء مـن حولـه .. وكـان راقى التفكير لا يملك حصيلة من الشتائم ، لهذا راح يردد فى سخط :

ـ « اللعنـة ! يا للكارثة ! اللعنـة ! »

هرعت (عبير) قادمة من الصالـة حاملـة كشاف الطوارئ ، وتساءلت فى جزع :

ـ « هل ضاع كل ما قمتِ به ؟ »

ـ « لا .. لقد سجلته أولاً فأولاً .. المشكلة أننى لن أستطيع استكماله .. »

وبقلق أردف :

ـ « ولا تطبيقه .. فالفجر دان بعد دقائق ! »

راحا يتأملان الغرفة فى ضـوء (النيون) الأبيض المـزرقَ البارد من كشـاف الطوارئ .. ظـلال كثـيرة على الجدران تصلح ـ أفضـل ما يكون ـ للتعبير عن توترهما الداخلى ..

راحا يتأملان الغرفة فى ضوء (النيون) الأبيض المزرقَ البارد من كشاف الطوارئ ..

وتذكرت (عبير) ألعاب التيار الكهربى السخيفة ، حين كان لا ينقطع إلا فى حفلات الزفاف وليالى الامتحانات ..

فلتعد سريعًا يا أحمق .. فلتعد !

★ ★ ★

وعاد الأحمق بعد نصف ساعة ..

وكان هذا كافيا كى يهرع (شريف) يواصل عمله بسرعة محمومة .. لقد كان عبقريًا .. وعليه أن يثبت هذا . فقط العباقرة يستطيعون أن يؤلفوا برنامجا بلغة التجميع ـ شديدة التعقيد ـ ودون تخطيط مسبق ، وفى فترة زمنية قصيرة كهذه ، ومع كل هذه التوترات ..

صاح فى (عبير) وهو لا يكف عن قرع الأزرار :

ـ « احضرى جهاز مسح الصور (سكنر) .. »

وكانت هى قد أعدت بعض الصور المنتقاة من المجلات سرعان ما راح يمرّر الجهاز عليها كى يدخلها ذاكرة الكمبيوتر ..

بيد مرتجفة يمرر الجهاز الصغير الذى هو فى حجم فرشاة الشعر على أجزاء الصور .. عندها كانت (عبير) تراها على الشاشة تتكون ببطء .

وكانت الصور التى اقترحتها (عبير) كما يلى

١ ـ صورة بندقية آلية .

٢ ـ صورة سلاح (ليزر) من احدى مجلات الخيال العلمى + درع (ليزر) .

٣ ـ صورة سيف عملاق .

٤ ـ صورة قنبلة يدوية .

٥ ـ صورة وحش لا يمكن معرفة كنهه شىء مريع ظهر فى أحد الأفلام الفضائية وكانت المقالة تتحدث عن الفيلم بالتفصيل .

انتهى (شريف) من وضع الصور فى ذاكرة الكمبيوتر .. ثم أجرى التعديلات الأخيرة فى سطور البرنامج .

سألته ملهوفة :

ـ « هل سيعمل ؟ »

ـ « المفترض أن يحدث هذا . لكن لا ضمانات لا توجد طريقة واحدة للتأكد إلا بالمواجهة ذاتها السبيل الوحيد لاختبار قدرتك على السباحة هو نزول الماء .. »

ثم أشار لها كى تجلس وغمغم متسائلاً :

- « مستعدة ؟ »

- « بالتأكيد .. »

قام بتثبيت الأقطاب على رأسها ، كأنها تستعد للسفر من جديد الى (فانتازيا) .. وقال لها :

- « أرجو أن تكونى سريعة البديهة بما يكفى »

ثم كتب على الشاشة اسم البرنامج أمام علامة المحثّ .

c:\> Killer

أى (القاتل) .. وضغط زرّ الإدخال ..

* * *

قال (المرشد) لـ (عبير) وهو يداعب زنبرك قلمه :

- « مرحبًا يا (أليس) .. لماذا لم تصغى لكلامى وتفرى قبل أن تتطوّر الأمور لما هو أسوأ ؟ »

قالت وهى تتشمم الهواء حولها :

- « لم يعطونى فرصة .. وعلى كل حال .. أعتقد أن رحيلى إلى (فانتازيا) الآن يعنى أننى لم أكن فيها .. »

- « سيطول شرح هذا .. والآن أين أنت ذاهبة ؟ »

- « يا له من سؤال ! إلى سطح البيت طبعًا .. »

- « مطلب غريب .. لا أعتقد أنك متحمسة للانتحار إلى هذا الحدّ .. »

- « فقط خذنى هناك .. »

وراحت تصعد فى الدرج ، بينما مرشدها الصامت يتبعها كما يقضى (الإتيكيت) .. فما إن وصلا وفتحا الباب الخشبى الصغير حتى شهق (المرشد) غير مصدق ..

* * *

ضوء الفجر الأرجوانى يغمر المكان .

الجو بارد كما ينبغى أن يكون ..

لكن - فى الغبشة - يمكنك أن ترى الهول ذاته ..

صفوف من جنود الحيثيين ، شاكى السلاح بدروعهم .. وعشرات من رعاة البقر الملثمين ، يتحسسون مسدساتهم فى عصبية . وصفوف من القبائل الزنجية ، آكلة لحوم البشر . وصفوف من جنود الفضاء يتقدمهم (زولتار) بثيابه السوداء وقناعه المعقد .

قال لها (المرشد) بصوت مبحوح :

- « كيف جاء هذا السيرك إلى سطح البناية ؟ »

قالت (عبير) :

- « إنهم خيالات .. لكنها خيالات تؤذى .. »

- « كنهم هاهنا .. ولكن أين الكونت (دراكيولا) ؟ »

- « إنه الفجر .. لقد رحل لينام فى تابوته .. وهذا لحسن حظك .. لقد نقص القتلة واحدًا .. »

- « لا أظن هذا سيحدث فارقًا كبيرًا .. »

لم يكد ينهى عبارته حتى سمعت (عبير) صوت خطوات (شريف) وهو يرقى الدرج إلى السطح ..

انفتح الباب الخشبى الصغير - جناح الخفاش كما يسمونه - ليظهر (شريف) وحده أمام هذه الحشود .

كان شاحب الوجه - وهذا حقه - يرتجف قليلًا .. لكن غريزة إزالة البعد الثالث جعلته أشجع .. ففى هذه اللحظة كان يشعر بأنه يواجه كابوسًا ملونًا لا أكثر ..

وقف فى المساحة الوحيدة الخالية .. وهتف بصوت متحشرج :

- « من كبيركم ؟ إلى من أتحدث ؟ »

بعد هنيهة تقدم (زولتار) خطوتين إلى الأمام ، وقال :

- « إلىّ يا (جوال) .. إننى أكبرهم قمة وعلمًا .. »

قال (شريف) وعيناه تتفقدان الصفوف :

- « أين الطفلة ؟ »

- « هى فى مهدها الآن .. منذ أغلقت أنت باب دارك .. »

- « وماذا تريدون منى ؟ »

- « الانتقام ! »

- « كان ذلك بوسعكم فى أية لحظة .. »

- « بل نبغى المواجهة .. »

ابتلع (شريف) ريقه ونظر للأرض وقال :

- « أنت تعرف أننى سأموت مع أول هجمة على يدى أول مهاجم منكم .. لن يكون بوسعى أن أمنح قطعة من الكعكة لكل واحد من هذه الحشود .. »

- « لهذا سنبارزك بالترتيب .. »

ورفع (زولتار) رأسه مخاطبًا جنده الفضائيين :

- « تقدموا يا جند الإمبراطورية .. فأنتم أول من يبدأ .. »

وعلى الفور تقدم الجنود المدرعون ملوحين

ببنادقهم الفضائية غريبة الشكل .. واتخذوا وضعًا هجوميًّا حول (شريف) ..

★ ★ ★

(عبير) بجسدها المادى فى غرفة الكمبيوتر .. تهوم برأسها .. وهى وحدها فى الظلام أمام الشاشة .. ترسل وجدانها كى تقاتل المعركة دفاعًا عن زوجها ..

★ ★ ★

« المواجهة الأولى : بين جند الإمبراطورية العظام و (الجوّال) .. »

وتقدم الجند فى أوضاع هجومية مدروسة نحو (شريف) ..

صرخت (عبير) بأعلى صوتها وهى تقذف لـ (شريف) شيئا :

ـ « (شريف) ! خذ هذا ! »

وألقت بالمقبض فى الهواء ، فرفع (شريف) يده ليتلقفه .. وما إن ضغط عليه حتى برز شعاع الليزر ذو الأزيز .. وامتلأ الهواء برائحة الكهرباء الإستاتيكية ..

إن برنامج (القاتل) يعمل بشكل جيد ..

لقد حرص (شريف) على ان يزود ذاكرة (عبير) بصور الاسلحة المختلفة التى قد يحتاج اليها فى صراعه مع هذه الرؤى ..

والان (عبير) ـ فى صورتها الطيفية ـ تقف معه على السطح ، وتملك القدرة على استحضار أى سلاح تريد من خيالها ..

كان سيف (الليزر) قويا . وقد ادى عمله بشكل جيد ..

فما إن يلمس واحدا من الجنود حتى يضىء هذا بلون (النيون) ثم يتصاعد الدخان من ثقب فى صدره أو بطنه .. ويهوى أرضًا ..

ـ « لا تنس هذا ! »

وألقت إليه بدرع (الليزر) . وهو شىء يشبه المكواة الكهربية فما إن ضغط (شريف) عليه حتى برز ستار دائرى من شعاع (الليزر) يحميه من المهاجمين ..

ـ « أطلقوا بنادقكم ! »

كذا صرخ (زولتر) . وعلى الفور ركع بعض الجنود على ركبهم فى صف أمامى .. ووقف الباقون خلفهم فى صف خلفى ..

انهمرت الطلقات .. لكنها راحت تصطدم بالدرع ..
وراح الشرر يتناثر في كل صوب ..

كان (شريف) يناور كأفضل ما يكون .. وشهقت (عبير) وهي ترى أن (الجوال) قد عاد يسحق خصومه كما اعتادت ..

مرت عشر دقائق تسقط فيها كثير من جنود الإمبراطورية ، وأبلى فيها (شريف) خير بلاء ، كأنه يفعل هذا طيلة حياته ..

هنا وقف (زولتار) ناصبا هامته .. وصاح :

- « فليتراجع الجنود ! »

ثم نظر للوراء وهتف بلهجة حاسمة :

- « المواجهة الثانية بين أخوان الدم و (الجوال) .. »

وقف (شريف) وحده أمام رعاة البقر المنتمين الذين يتقدمون نحوه في تؤدة وحذر ..

لاهثا طوح بسلاحه ودرعه .. فقد كان يعرف جيدا أن ما يصلح لمعركة لا يصلح لأخرى .. هذه هي التقاليد ..

صاحت (عبير) حيث وقفت :

- « خذ يا (شريف) ! »

وطوحت بالبندقية الآلية نحوه ، فتلقفها ملهوفا ، وسرعان ما أطلق سيلا من الطلقات على أخوان الدم الذين لم يجدوا الوقت الكافي كي يخرجوا مسدساتهم ..

تصاعدت رائحة البارود ، وسالت الدماء على الأرض ..

همست (عبير) في أذن (المرشد) :

- « كل هذه الطلقات ولم يأت أحد من الجيران ؟ »

- « إن الأمر كله حلم كبير .. »

قالها منبهرا وهو لا يكف عن مداعبة زنبرك قلمه ..

كان (شريف) قد انتهى من القضاء على خصومه ووقف يلهث .. يلتقط أنفاسه .. وبيد مرهقة طوح بالبندقية الآلية بعيدا ، وراح ينتظر ما سيقوله (زولتار) ..

قال (زولتار) وهو يمشي بتؤدة بين الجثث :

- « أنت شجاع حقا يا (جوال) .. لكنك بحاجة إلى مزيد من الحظ كي تواجه جيش الحيثيين .. »

وبصوت عال هتف :

- « المواجهة الثالثة .. بين الحيثيين و (الجوال) .. »

صاحت (عبير) بدورها :

- « امسك يا (شريف) ! »

وطوّحت بالسيف البتار فى الهواء ليتلقفه (شريف) ..

كان هناك خطأ ما .. لقد نسيا - هى و(شريف) - أن يعطياه درعًا يناسب هذا الطراز من الحروب

ولا بد أن (شريف) قد تذكّر هذا بعد فوات الأوان ، حين وجد عشرة من الحيثيين يهاجمون برماحهم الطويلة المشرعة ..

ما الحل ؟ السيف لا يستطيع أن يطول هؤلاء .. وعشرة نصال مدببة تشق طريقها إلى صدره ..

صاح فى (عبير) وهو يتراجع للوراء :

- « (عبير) ! أعيدى لى البندقية الآلية ! »

لكنها لم تستطع .. فقوانين البرنامج الصارمة تحتم على (شريف) أن يقاتل بالسيف ..

وفى اللحظة التالية انغرست عشرة نصال فى صدر (شريف) وبطنه .. يبدو أنه قال شيئًا ما .. يبدو أنه تأوّه ..

وفى اللحظة التالية هوى على الأرض والدم يتفجّر منه .

صرخت (عبير) فى هستيريا .. بينما انفجرت ضحكات (زولتار) الوحشية المفعمة بالسادية ..

هرعت تركض نحو زوجها .. جثت على ركبتيها بجواره .. رفعت رأسه واحتضنتها .. حاولت أن تجعله يقول شيئًا أى شىء .. لكن الحياة كانت قد فرغت منه ، كلعبة أطفال انتزعت بطارياتها ..

راحت تهزّه .. تتوسل إليه ..

دون جدوى ..

والأدهى أنها لم تصدق لحظة أن هذا حقيقى ..

* * *

ربّت (المرشد) على كتفها وقال :

- « لقد انصرفوا يا فتاة .. هلمى بنا .. »

رفعت نحوه وجهها الملطخ بالدم .. وهمست :

- « إلى أين ؟ لقد انتهى كل شىء .. »

- « انتهى كل شىء فى هذه القصة .. »

صاحت محتجة :

- « للمرة الألف أكرر أن هذا هو عالمى .. »

ابتسم فى خبث وأعاد القلم إلى سترته ، وقال :

- « يمكنك التمسك بهذا العالم الذى هلك فيه

جثت على ركبتيها بجواره .. رفعت رأسه واحتضنتها ..
حاولت أن تجعله يقول شيئًا ..

زوجك .. لكنى لا أنصح بهذا .. إننى أقدم لك عرضًا سخيًا : كل هذا مجرد كابوس لا أكثر .. »

نظرت له ببعض الأمل .. وهمست :

ـ « هل تعنى ؟ »

ـ « نعم أعنى .. كل هذا مجرد محطة من محطات (فانتازيا) يمكنك مغادرتها متى أردت .. لقد عشت مغامرة فى دور (عبير عبد الرحمن) .. وكانت نهايتها أليمة .. لكنها انتهت على كل حال .. »

وأردف وهو يمسك بيدها لينهضها :

ـ « لقد بح صوتى كى أجعلك تفهمين بديهية كهذه .. »

نهضت مترددة .. وتمنت أن يكون على صواب ..

مشت بجواره ، وألقت نظرة إلى السطح الذى بللت الدماء أرضه ..

لم تكن هناك سوى جثة (شريف) ، وقد بدأت الشمس تنزع النقاب عن وجهها الصبوح ..

لن يكون هذا حقيقة ..

من المستحيل أن يكون حقيقة ..

★ ★ ★

خاتمـة

حين فتحت عينيها ، لم تستطع أن تعرف مكانها جيدًا .. لم تستطع أن تعرف من هي ..

وأخيرًا عرفت حدود جهاز الكمبيوتر والمكتب ، وعرفت أن الأقطاب على رأسها ، وأن هناك من ينحنى على الجهاز يضغط أزراره وهو يراقب الشاشة ..

أصدرت أنينًا .. وهمست :

ـ « (شريف) .. لا تمت أرجوك ! »

التفت لها المنحنى على الشاشة ، وابتسم فى رضا ..

كان هو (شريف) ذاته ، وقد تساقطت خصلة من شعره على جبينه تشى بإرهاق عنيف ..

هتفت فى لهفة :

ـ « (شريف) ! أنت حىّ ! »

ـ « بودى أن أقول نفس الشيء عنك ! »

وراح ينزع الأقطاب عن رأسها ..

قال لها معاتبًا :

ـ « خالفت أوامرى .. وقمت بتجربة الجهاز وحدك .. وبما أنك حمقاء ؛ فإنك لم تعلمى أننى أحدد عدد

الأحلام للبرنامج فى كل مرة .. حلم واحد فقط .. فى حالتك هذه لم تفعلى ذلك .. ودخل الجهاز فى حلقة مفرغة دائمة من الأحلام .. أعتقد أنك عشتِ خمسة أحلام فى ساعتين .. »

أرجعت رأسها للوراء .. وغمغمت :

ـ « حقًا .. خمسة .. كان أبشعها الخامس .. »

ـ « وماذا رأيت فيه ؟ »

ـ « رأيت شيئًا شنيعًا : نفسى ! »

ـ « يا للبشاعة ! وماذا أيضًا ؟ »

ـ « كان الحيثيون يقتلونك برماحهم وما إلى ذلك .. يبدو أنك أوقفت البرنامج فى هذه اللحظة .. »

ـ « بالفعل .. فقد كان مظهرك غير مريح .. »

شهقت وغطت وجهها بيديها .. وقالت :

ـ « و ... و (شذى) ؟ »

نظر لها فى غباء :

ـ « من هى (شذى) ؟ »

ابتسمتْ .. أحقًا لم توجد (شذى) قط ؟ أحقًا ما زالت بالداخل تنتظر لحظة النور ؟ هذا غريب ..

لقد كان (المرشد) صادقًا إذن طيلة الوقت ..

كانت (عبير) لكنها لم تكن هى .. بل كانت تلعب دورها فى قصة غريبة حقًا ..

هذا هو عالمها الحقيقى إذن ..

هذا هو (شريف) الحقيقى .. كما خلقه اللّٰه (سبحانه وتعالى) لا كما اخترعه خيالها ..

ربّاه ! إنها سعيدة حقًا ..

قالت له فى دلال وهى تنهض مترنحة :

ـ « متى تكون ولادتى ؟ »

ـ « بعد خمسة أشهر .. لماذا تسألين ؟ »

ـ « لأننى خضت تجربة الولادة بالكامل فى هذا الحلم .. »

ثم عادت تسأله :

ـ « ومن أنا ؟ »

ـ « أنت (عبير عبد الرحمن) .. زوجتى .. وأكبر حمقاء فى العالم .. »

ـ « وتحبنى ؟ »

ـ « نعم .. كما أحب عيوبى الذاتية كلها .. لأنها عيوبى أنا .. »

★ ★ ★

أخيرًا عادت (عبير) إلى عالمها الواقعى .. طائرة ضالة وجدت طريقها إلى مطارها الذى اعتادت الإقلاع منه ..

ستكون هناك رحلات جديدة إلى أراض أخرى .. لكنها ـ دومًا ـ تعرف أن حياتها الأصلية تنتظرها ..

وفى الكتيب القادم تتعرف (عبير) رجلًا يبدو كالبشر .. لكنه ليس بشريًا تمامًا ؛ لأنه آت من كوكب يدعى (كريبتون) ..

وفى عرفنا اصطلحنا على تسمية هذا الرجل باسم (سوبر مان) .

(تمت بحمد اللّٰه)

★ ★ ★

فانتازيا

مغامرات ممتعة من أرض الخيـال

روايات مصرية للجيب

بين عالمين

ينتهي الحلم وتعود لأرض الواقع .. لكنك تجد شيئًا ما .. شيئًا ما على غير ما يُرام .. شيئًا ما غير معتاد .. لقد تهشم الحاجـز الفاصل بين الحلم والواقع ، وتسربت الأحلام - وأكثرها مخيف - إلى عالم الحقيقة .. هل هو مجرد كابوس آخر ؟

د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مـ… وما يعادله بالدولار … في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع